نوافذُ الضوءِ

رئيس مجلس الإدارة

د. هيثم الحاج علي

نوافذ الضوء

محمد صالح البحر

الطبعة الأولى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٢٢

١١٩٤ كورنيش النيل ـ رملة بولاق ـ القاهرة

ص.ب ٢٣٥ رمسيس ـ الرمز البريدي ١١٧٩٤

تليفون ٢٥٧٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩ـ فاكس ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٨٩٥ / ٢٠٢٢

I.S.B.N 978 977 91 3805 3

التصحيح اللغوي.. ايناس الدكروري

الإخراج الفني.. سيد البوهي

قصص

نـوافـذُ الــضوءِ

محمد صالح البحر

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٢٢

إلى

حبيبة، ملك، إياد

نوافذ مفتوحة على ضوء لا ينضب

المقعد الخالي

لا شيء يحدث في الحياة لأول مرة، كل ما يحدث ـ وما سيحدث لاحقًا ـ حدث بشكلٍ أو بآخر من قبل، ومع ذلك فإننا لا نقدر على مقاومة الدهشة مع كل حدث جديد، ولا تتوانى عقولنا عن محاولات تجنب الكوارث، أو ملاحقة الأفراح.

وأنا أظلّ أسير

حاملًا فوق كتفيّ همومي وسعادتي، وأشرب من كليهما بحسب ما يقتضيه الحال.

...

الرجل الذي يواجهني على المقعد المقابل، لا يكف عن قضم أظافره بعصبية، أو النظر بخوف إلى كل الأشياء التي تتراءى له في المكان، وأنا لا أكف عن التحديق في المرأة التي تجاوره، كانت تتشح بسواد يتناسب مع الإضاءة الخافتة للمكان، لكنها ظلتْ بارزة، وعندما عجزتْ عن إخراج صورتها من نني عينيّ،

خلعتْ قفازها بأناقة، ووضعته بهدوء على يد المقعد الذي تجلس عليه.

كنت أعرف أن اليد بداية، فمِلْتُ برأسي للوراء حتى حضنتُ السقف بعينيّ، وقلت للرجل الذي تشكَّل فيه ـ هناك في المساحة المختبئة بين البياض والعتمة ـ إن العيون لغة، تتشكّل حروفها من الصمت، لكنها ستُشكِّل مستقبل الإنسان الآتي، وإننا نُفسد الحياة عندما نتكلم، حتى تصير مجرد خطأ عابر، نفقد فيه كل شيء.

...

الذين يتحدّثون عن الانتحار لا يحبون الموت، إنهم يتلذذون بالحزن، ويستعذبون أن يصيروا ضحايا في مواجهة العالم، كي لا تكشف الحياة عن ضعفهم الإنساني، وكان المرضى يتركون مقاعدهم بانتظام شديد، وبترتيب صارم يدخلون في ذات الإضاءة الخافتة بحجرة الطبيب النفسي.

وأنا أظل أسير، حتى أصل إلى المقعد الخالي أمام البار.

ـ أمام كل بار هناك دائما مقعد خالي.

أطلب كأسًا لنفسي، وكأسًا لضعفي الإنساني، ونظل هكذا حتى نتجاوز مرحلة التنميل التي تدغدغ أعلى الرأس، ونبدأ في الضحك معًا، الشراب في جماعة أمر مهم جدًا لكي أسمو،

فتلاحقني عينا ضعفي الإنساني حتى تفلحا في معانقتي، هناك في المساحة المختبئة بين البياض والعتمة.

...

يرتكب الناس جرائمهم ومحبتهم فرادى، لكنهم يرتحلون إلى المنافي في جماعات، وكأنهم يتلذّذون بمشاهدة العذاب.

وأنا اخترتُ ألا أتوقف عن السير.

نوافذُ الضوءِ

هتف راجيا:

ـ دعني أنَمْ قليلًا.

غير أن رنين المنبه استمرّ في صراخه الصاخب، فلم يجد بُدًا من مد يده باتجاهه، أطفأه، لكنه أطفأ النوم بداخله أيضًا، فقد كان يعلم أن أقل حركة تصدر عنه كفيلة بإيقاظه، حتى لو اكتفى بفتح عينيه في ظلام الغرفة، غير أنه لم يحتمل الصراخ، ولم يجد شيئا يفعله بعد اليقظة التي ملأتْ روحه، سوى أن يُسرِّبها بهدوء إلى جسده كي يكتمل الصحو، ويبدأ طقوس يومه المعتادة، التي لم تتغير منذ أربعين سنة ـ على الأقل ـ مرتْ قبل أن يبدأ هذا اليوم الآن، تمطّى وكاد أن يرسل للسماء ـ التي يعلم يقينا أنها تقف أعلى السقف الذي يحجبه عنها ـ دعاءه المُعتاد بأن تشق ظلامها شمس لينة، وقادرة على أن تجعل يومه سهلًا، وهو يمر من خلاله إلى الخاتمة الحسنة،

التي يأمل أن يجدها في نهاية العمر، وعندما تذكر أنه اليوم الأخير له في المصنع، تجمعت الدموع في عينيه.

انسلّ وئيدًا وحزينًا من السرير كي لا يوقظ زوجته، وفي المسافة الفاصلة بين غرفته والحمّام أقنع نفسه بأن لكل شيء نهاية، ثم ذكَّرها بأنه الرجل الذي يأمل دومًا في النهايات السعيدة الهادئة، ولا يكل من أجل الوصول إليها، فتأكد اقتناعه بالهدوء، حتى خُيِّل إليه أنه يرى شعاعًا من الرضا يمر أمام عينيه كبرق خاطف، وأن لمسته السريعة له اقتلعتْ من روحه الحزن والألم، وأخمدتْ في جسده الرعشة التي أنبتها قلق السؤال المحير، الذي لم يعرف إجابته على مدار الشهرين الماضيين، كيف ستسير الحياة من بعد؟! هكذا وجد قدميه تثبتان في سيرهما على الأرض، فدخل الحمام بطمأنينة شديدة، كأن روحه قد رُدَّتْ إليه، وزاد اطمئنانه وهو يشعر بتدفق السموم من بطنه ومثانته في قاعدة الحمام بسهولة لم يعهدها من قبل، حتى أنه ابتسم، ونظر عن يمينه ليقذف بسمته خلف شعاع الرضا الذي لمسه قبل قليل، راجيًا أن تلحق به في الأعلى، وكاد ينتشي ببرودة الماء على وجهه وهي تهبه الصحو، لولا أنه نظر في المرآة، وباغتته صورته بنظرة مقابلة، وممتلئة باستغراب بالغ، مثل حقيقة تصفعه على وجهه بعنف وهي تكشف أمام عينيه كل شيء، فانفجرت عيناه بالدموع التي تجمعت فيهما قبل أن يدخل إلى الحمام.

خرج وئيدًا وحزينًا ووحيدًا، وفوجئ بصوت انهمار الماء في حوض المطبخ فوق رؤوس الأطباق والملاعق والأكواب التي تكوّمت فيه، فانطبعت صورتهم أمام عينيه، تمامًا كما تركهم ليلة أمس وهو يخرج بآخر كوب شاي له قبل أن يلتهمه النوم، فعرفَ أن زوجته استيقظتْ، لكنه لم يعرف على وجه الدقة إذا ما كان صوت المنبه قد أزعجها على غير ما اعتادتْ طوال السنوات الماضية؟! أم أنه لم يكن حريصًا بالقدر الكافي لإحداث الهدوء أثناء حركته من الغرفة إلى الحمام؟! وقبل أن يعثر على إجابة تريحه بانحيازها إلى أحد الاحتمالين، أو تأتي حتى باحتمال آخر يخصها وحدها من دونه، شعر بأن الصفعة القوية التي التهمتْ وجهه في الحمام تنسل بعيدًا عن روحه، وتسحب معها كل الألم الذي اعتصره في الداخل، والمرارة التي تعلق بروحه منذ شهرين تقريبًا، عندما أخبرته إدارة المصنع أن من حقه أن يأخذهما كإجازة مستحقة بأجر كامل قبل إحالته إلى المعاش، ورفض تمامًا الاستسلام لطلبها، ارتاح لإحساسه الجديد بالراحة، ولم يفاجأ بخروج زوجته من المطبخ وهي تحمل ابتسامة كبيرة على وجهها، وتُجسدها في خده على هيئة قُبلة حانية، وهامسة بأمنيات الصباح الذي يحمل الخير، وفرح البقاء الطويل إلى جوارها، بدا كرجل مثالي يحمل أعباءه، ويؤدي دوره على أكمل وجه، دون أدنى انتظار لأي ضوء يمكن أن يشير إليه، ولو من بعيد، وبدتْ زوجته كمن يمد يديه بتورتة عيد ميلاد سيمر ببهجته الراضية المعتادة، ومن المستحيل أن يردها بخيبة عدم القبول، ابتسم واهنًا ورد القبلة،

لكنه استدار ملهوفًا إلى غرفته ليرتدي ملابس الخروج، تعلل بتأخره عن العمل، وطلب منها تجهيز إفطار سريع له، طالما أنها استيقظت، كان يلمح بطرف عينيه يديها اللتين ظلتا معلقتين في الهواء لفترة وجيزة، ثم تراختا مع انكسارها وهبوط بسمتها في الأرض، لكنه لم يأبه لذلك، وكانت تشعر بأنه تركها كمن لا يؤمن بوجودها، لكنه ظل يردد في نفسه بصمت أن هذا هو حال الرجال جميعًا، وإلا كيف سيحملون مسئولياتهم فوق أكتافهم، ويمشون بها؟!

أكمل ارتداء ملابسه بلهفة رجل يأمل أن يظل ملتزمًا إلى النهاية، ولمح وهو يخرج من البيت كأن زوجته لا تزال تقف مكانها في الطُرْقَة المؤدية إلى المطبخ كتمثال صامت، تتدلى يداها بارتخاء منكسر، وتمتد عيناها نحوه بحزن وخيبة أمل، لكنه كان في مواجهة الشارع الذي سحب عينيه سريعًا كأنما ليريه امتداده الهادئ أمامهما تحت سماء صافية، تبدأ الآن في صبغ نفسها بوهج الزرقة الذي تقذفه إليها الشمس من بعيد، قبل أن تأتي لتبدأ نهار اليوم، وكان قد دفع باب البيت ليُغلق من خلفه، فأخفض عينيه عن الشارع واستدار ليتأكد من إحكام غلقه، لكنه لم يعرف على وجه الدقة هل لمح طرف عينيه ذلك الطفل حقا؟! أم خُيِّل إليه أن ثمة طفلًا صغيرًا يقطع عرض الشارع أمام عينيه، هناك في آخر الامتداد الهادئ تحت الزرقة، ولوهلة أحس بأنه يعرفه، أن أمره يهمه لسبب ما لم يستطع تفسيره، وتساءل في نفسه، ما الذي يخرجه وحيدًا في هذا الوقت المبكر؟! لكن باب البيت كان قد انغلق تماما من خلفه،

فاجأه صوت اصطدامه بالإطار الخشبي المثبت في الحائط، كأنما قنبلة تنفجر بغتة عن دوي مفزع، وشعر كأن شعاعا من ضوء أبيض قد انسلّ سريعًا وخرج من خلفه، حاول أن يقبض عليه بعينيه، لكنه بدا أسرع من نظرته الخاطفة، ولسبب ما شعر بأنه سيلازمه على طول الطريق إلى المصنع.

لأول مرة منذ أكثر من أربعين عامًا مضت يفوته أتوبيس العاملين بالمصنع، كان موقنًا أنه قد تأخّر بعض الشيء، لكنه رجى الوقت كثيرا كي تسعفه لهفته في الطريق على اللحاق بموعده، وقف محتارًا، وانزلقت روحه بين ألم الرجوع إلى البيت لأول مرة في حياته، أو مرارة الوقوف كتلميذ خائب بين يديّ مدير المصنع، وهو يؤنبه على خيبة أمله فيه كأيقونة المصنع المثالية، بأكثر مما يؤنبه على التأخير، وظلّ غارقًا في حيرته حتى هداه تفكيره للّجوء إلى سيارات الأجرة بالموقف، آملا أن تسعفه سرعتها المضاعفة عن سرعة الأتوبيس القديم، المتهالك، في انقاذ صورته، ليس فقط أمام الجميع، بل وأمام نفسه أيضًا، في آخر يوم عمل له بالمصنع.

تعذّبه الطريق إلى النهايات السعيدة، لذلك لا يكف عن الجري خلفها، ولا يمل من أمل الوصول إلى طعم حلاوتها في نفسه، آخر صورة له يتركها في أذهان الآخرين هي ما شَكَّلَ مجرى حياته كلها إلى الآن، يريدها دائمًا بيضاء ناصعة، ولا يرتاح إلا مع شعوره بنعومة ملمسها في روحه، إذ تنقذف إليها من ابتسامات الآخرين في وجهه، أو نظرات رضاهم عنه، أو هسيس

دعواتهم الصادقة له وهو يطرق باب أذنيه واضحًا كل ليل، كلما وضع رأسه على المخدة ليخلد إلى راحة النوم، ولم ينكر على مدار حياته كلها أن الارتياح الأكبر ظل يأتيه دائمًا من زوجته وبنتيه، بعدما قطع الموت ارتياح أبويه نحوه من قبلهم، وتركه نهبا للقلق والوحدة وخيبة الأمل، إلى أن جاءوا وأكملوا نقصان الروح.

تعلقت عيناه برجاء صامت نحو السائق الذي بدا وكأنه يتعجّب كثيرًا من لهفته، أو أن لهفته بدت في عينيه غير مبررة على الإطلاق، حتى أن السائق بدا مضطرًا ـ وهو يُخبره بأنه لم يبق على اكتمال العربة سوى فرد واحد ـ أن يدعوه فقط إلى الهدوء بذلك الصوت الذي بدا وكأنه مكتوم على الغيظ، أو الدهشة، كان يعلم غلظة سائقي سيارات الأجرة، ربما لم يَخْبَرها كثيرًا مع حالة الالتزام الشديد التي بدا عليها طوال حياته، لكنه سمع عنها كثيرًا من زملاء العمل، ورآها في مواقف قليلة لكنها قادرة على إثبات صحة كل كلمة نقلتها أفواههم إلى أذنيه، لذلك استكان إلى رسالة الهدوء، وصرف ذهنه عن التفكير في أي شيء آخر يمكن أن يتطوّر إليه الأمر، وما إن استوى على مقعده حتى رأى الرجل المنتظَر يجلس إلى جواره مباشرة وكأنه يهبط من السماء، للحظة شعر أن شعاعًا من الضوء قد تجسد إلى جواره في غفلة من عينيه، لكنه لم يُتعب عقله في التفكير، فقد كان كل همّه أن يصل إلى المصنع قبل وصول الأتوبيس، أو على الأقل معه، ثم يتسرّب وسط زملائه في دخولهم المزدحم وكأنه كان معهم، راجيًا ألا

يلحظ أحدهم ذلك، نظر في فراغ السيارة بدهشة وكأنه يبحث عن الشعاع الذي جَسَّدَ الشاب الصغير إلى جواره ليُقبله شاكرًا، وعندما لم يجد شيئا أسلم نفسه طواعية لانتعاشه الهواء البارد، التي أتته من نافذة السيارة المفتوحة على البراح وهي تُسلم نفسها للريح، وسرعان ما أغمض عينيه عليها متلذذًا بنعومة ملمسها على وجهه.

لم يشعر بالوقت الذي مر، فتح عينيه على شعوره بالكف التي تهز كتفه بليونة لتهبه الانتباه إليها، فرأى الشارع لا يزال يجري إلى الخلف عبر نافذة السيارة، وعندما مشت نظرته من الكف التي تلمس كتفه، ووصلت إلى وجه الشاب الذي يجلس إلى جواره، وبهزه مبتسما بود، شعر بأنه يعرفه أيضا، وسرعان ما دخله يقين بأنه قد التقى به من قبل، وإن لم يقدر على تذكر متى أو أين حدث ذلك؟! ثم أخبر نفسه بأن الوجوه تتشابه، والأرواح تتآلف ربما دون سبب ظاهر، لكنه وهو يُنحّي كل هذه المشاعر في ركن ما من روحه، بدا مرتاحًا جدًا في نظرته المتسائلة إلى الشاب، الذي أخبره بأن السيارة قد قاربت على الوصول إلى المصنع، وأن عليه أن يظل يقظًا كي لا يفوته المكان أو الموعد، ابتسم في وجهه الشاب وهو يردد كلمة الشكر، وعرف أن إغفاءة ما قد أصابته في اللحظات القليلة التي مرَّت، لكنه استغرب كثيرا لذلك الشعور الضخم بالتعب الذي ينتابه فجأة، ويتشكل على هيئة صداع رهيب يكاد يعصر رأسه، وما إن عَدَّلَ من وضع رأسه ليستوي على مسند المقعد

حتى سمع صوت الشاب يأتيه بوضوح، رغم تأكده التام بأنه كان يهمس لنفسه:

ـ كان أبي أيضًا يعمل في المصنع.

انتبه إليه، فابتسم الشاب وكأنه يفرح بقدرته على جذب انتباهه إليه مرة أخرى، وبسرعة خاطفة أخرج هاتفه المحمول من جيب بنطاله، واقترب بود حتى ألصق كتفه به، وحتى أنه لم يعطه الفرصة للسؤال أو التفكير في منْ يمكن أن يكون أبوه هذا؟! وما علاقته به؟! ولا إلى أي مصير أصبح الآن فعل "كان" الذي نطق به؟! وضع الشاب الهاتف في يده كأنما يدس إليه سرًا عظيمًا، وأشارتْ سبابته بثقة:

ـ هنا يكمن كل شيء، كلما اشتقتُ إلى أبي وضعتُ وجهي في هذه الشاشة، وضغطتُ بإصبعي عليها.

حاول أن يبدي دهشته للشاب عبر الكثير من الأسئلة التي تزاحمت في رأسه، غير أن الشاب ابتسم في وجهه برضا أجبره على الصمت، صمت مكتوم على الدهشة والخوف في ذات الوقت، ونابت من عدم قدرته على تصديق أن الشاب قد استطاع أن يفعلها هكذا، بمنتهى البساطة والعفوية، فقد كان وجهه مبتسمًا، فيما عيناه كانتا حادتين ومفتوحتين على حزم قاطع، لم يستطع معه سوى اللجوء إلى الصمت، والظن بأنه سيلبي طواعية كل ما يمكن أن يأمره به الشاب الآن، وكأنه تحت تأثير النوم المغناطيسي، غير أن الشاب أوقف السيارة

ونزل مسرعًا، نزل بثقة وصمت راض ومبتسم، كأنه كان في مهمة وأداها على الوجه الأكمل، وبمجرد نزول الشاب اختفتْ كل الأسئلة من رأسه، بدتْ كأنما دخان سيجارة نفثه في البعيد بغير رجعه، وتابعت عيناه الشاب وهو يسير بعرض الطريق هابطا إلى النهر، وعندما داست قدماه أرض المعدية القديمة، المركونة الآن بإهمال على الشاطئ، التفت خلفه كأنما ينظر إليه عن عمد داخل السيارة، رآه يلوّح إليه بيده مودعًا، بينما المعدية التي تعطلت عن العمل ـ منذ أيام شبابه الموغل الآن في الزمن ـ تقطع به النهر إلى الجهة الأخرى من المدينة، ورأى نفسه مدفوعًا بقوة ما إلى النظر في الهاتف.

كانت السيارة تندفع بوهن وانسيابية، كأن عجلاتها ارتفعت عن الإسفلت، وفي الغبش الفضي للصباح البكر شعر أنها تسير خارج إطار الزمن، أنه وحيد في مركبة ما، بفضاء ما، ولا شيء يحوم من حوله سوى صورته التي تبدو بوضوح تام في شاشه الهاتف المطفأ على سواد لامع، والذي كلما حاول إسقاطه بين فخذيه، أو حتى إخفاءه داخل أحد جيوبه ليُبعده عن عينيه، يشعر أن كفه ترتفع بقوة خفية ليستوي الهاتف أمام عينيه مرة أخرى، ولتبدو صورته في مواجهته تمامًا، وعندما لم يستطع إبعاد عينيه رَدَّ الأمر كله إلى رغبة الفضول التي اكتشفها بداخله منذ الصغر، وظلت تكبر معه إلى الآن، وقرر أن يضغط على الصورة، هكذا امتدّ إصبعه السبابة إلى الأمام ساحبًا يده كلها باتجاه شاشة الهاتف، وبدت صورته في الهاتف كأنما تنظر إلى إصبعه، فتحول هدوؤها المستكين على الصمت إلى حذر

مترقب، وظلت عيناها تتسعان على الخوف كلما شعرتا باقتراب سبابته منها، كأن خطرا عظيما من المنتظر أن يقع، حتى انتفتْ المسافة الفاصلة بينهما، فأغمضت الصورة عينيها على الاستسلام والظلام، وسقط الإصبع بينهما تمامًا.

أضاءتْ الشاشة كأنما روح عظيمة تنقذف في حياته كلها لتُعيد بعثها من جديد، نجم سماوي ضخم ومنير يقترب من سنين عمره كلها، ليكشف كل شيء في صورته التي رآها، وفي حقيقته التي توارت عنه، أو أغمض عينيه عنها طواعية كي تمضي في هدوء، وبعيدًا عن أية احتمالات ممكنة للصخب، أو الصراخ، أو حتى مجرد الوجع الواهن الذي يمكن للروح أن تستعيده في لحظة مماثلة، هكذا بدت له حياته في الشاشة مثل شريط سينمائي لصور لا تكف عن التدفق في تلاحقها المتواصل، وإن بدا ازدحامها منظمًا ودقيقًا، وقاصرًا لضوئه الكاشف على اللحظات التي صنعت الوهج، وحفرت في الروح، هكذا رأى نفسه في الشاشة وليدًا ينقذف بصعوبة بالغة بين فخذيّ أم لا تكف عن الصراخ والألم، ليرتمي فوق جثث الكثير من إخوته الذين سبقوه إلى الموت، ولتلقفه يد الأب بكل الحرص الذي علمته له الدنيا، حتى أدركه الشيب وحيدًا وفقيرًا وقد تجاوز الأربعين من عمره، احتضنه بماء خلاصه، وبقطرات الدم التي لا تزال تتساقط من حبل سرته الذي رُبِطَ على عجل، وظلّ يتكوّر من فوقه بدموع غزيرة، وعقل مشوش من عدم قدرته على تصديق ما يرى بين يديه، حتى كاد الوليد أن يختنق في صدره لولا أن نبهته الداية، وانتزعت الوليد من بين ذراعيه

عنوة، لتضعه في حضن أمه التي تخلصت للتو من آلام مخاضها، وراحت تبكي على بكاء زوجها، ثم تفرح لفرحه، تحسست الوليد في حضنها بأصابع مرتعشة كأنما تتأكد من حقيقة وجوده بين يديها، وبالكاد استطاعت أن تغالب دموعها ورعشتها حتى هدأت، وامتدت يدها ببطء بالغ لتسحب عليهما الملاءة السوداء التي تغطي نصفها السفلي، فعم الظلام الشاشة كلها، لتضيء بعد فترة وجيزة على طفل صغير يقطع عرض الشارع الممتد في عمق الشاشة وسط بيوت خشبية واطئة وفقيرة، ترقد بعشوائية على الجانب المهمل من النهر كأنها بصقة المدينة التي لفظتها بعيدا لتُطهر داخلها، وتتمطى بتعب كأنها لم تكتفِ بعد من ليل قصير لا يهب الراحة كاملة، تحت سماء صافية وفضية ـ لم تهتك الشمس بكارتها بعد في هذا الوقت المبكر من الصباح ـ يتسلل الطفل بهدوء وتلقائية كأنما نداهة ما تشده إلى بيت الجارة المقابل؛ لتتفتح في عينيه الألوان الصاخبة لزهور عالم الجِنِّيَة الجميلة التي تسكن البيت، الرداء البيتي الأزرق تحت الضوء الأبيض، الزجاجة الطويلة التي تصب سائلها الأحمر في كوب زجاجي لامع وشفاف، الموسيقى التي تنساب بعذوبة طبول الحرب وهي تأتي من بعيد، تحمل بحماس شديد صوت المغنية التي تبحث عن "تمر حنة" وتتساءل عن مكان شرودها المجهول، والتواءات الجِنِّيَة الراقصة وهي تتجسد في عينيه كثعبان عظيم، اعتقد طويلا أنه لو دخل بطنه، أو اعتلى ظهره، فإنه سيلج حتما إلى الجنة بسهولة ويسر، لم تسعفه سنواته السبع من تسلق السور

الخشبي، أو فتح مزلاجه من الداخل عبر فواصل الألواح الخشبية التي تقف أمامه بارتفاع المتر الواحد، فقبض بكفيه الصغيرتين على أطرافها العلوية المسنونة كرؤوس الحِراب، ووقف كمسحور يتفرج على الدنيا الجميلة، وهي ترتفع به على مهل ليطير باتجاه السماء، لم ينتبه للدم الذي راح يتقاطر من يديه بلا ألم، لكنه انتبه فزعًا من صفعة الأم على عنقه، ومات في قبضتها الغاشمة على يده، وهي تسحبه بعيدًا عن طريق الشيطان، وتتوارى به داخل البيت الذي لم تعرف أبدًا كيف كان يتسلل منه كل صباح؟!

وما إن اختفت صورة الطفل حتى ظهر الشاب الذي كان يجلس إلى جواره منذ قليل، كان يقف على شاطئ النهر في مواجهة المعدية التي بدت جديدة وعفيه، مثل حصان يضع أقدامه على أول مضمار السباق بتحفز كامل، انتظارًا للحظة الانطلاق، وكان بياضها الزاهي يلمع تحت أشعة شمس الصبح اللينة كأنما ليخطف عينيه وهو يمدهما إلى الطرف الآخر للمدينة، فيما يتقاطر أقرانه من خلفه هابطين إلى النهر، ومنسلين من جانبيه إلى داخل المعدية لتعبر بهم إلى مدارسها، ونواديها، ومتنزهاتها، وكل أشكال الحياة التي ملأتْ روحه ولم يستطع اللحاق بها، بدا الشاب في وقوفه الصامت على الشاطئ كأنما حجر ضخم يعترض طريق تدفقهم المستقيم، فيضطرون إلى تفاديه، يتسرّبون كماء جارٍ على جانبيه بيسر وليونة، وتُحدث انحناءاتهم من حوله، ودهشتهم بوجوده، أصواتًا متداخلة كخرير متدفق وممتلئ باللغط، لكنه ينقذف في أذنيه بإيقاع واحد،

صاخب ومدوي ولا يدعو لشيء إلا الصمم، وهو يملأ أذنيه عن آخرهما حتى لا يكاد يميز شيئا منه، وسرعان ما يتوارى خلف حُجُبٍ كثيفة من جدران شفافة لكنها محكمة الإغلاق، فتبدو أصواتهم وأسئلتهم المتداخلة كأنما تأتي من بعيد، بحيث لا يبقى منها شيء سوى حركات أياديهم ووجوههم، فيبدون في عينيه مثل صُمٍّ لا يُجيدون التعبير عما يعتمل بدواخلهم، ويبدو الشاب في عيونهم مثل أبْلَه لا يُجيد فك شفرة أسئلتهم التي تريد الاطمئنان عليه، أو تتحسّس معرفة أحواله، أو تسأل لماذا أجبره والده على ترك المدرسة بعد المرحلة الإعدادية، وألحقه للعمل مبكرًا بالمصنع؟! فيظل يبتسم في وجوههم برضا، لم يكن يريد الركون إلى الصمت، لكنه عجز عن الكلام، يذكر الآن هذه اللحظة جيدًا، نظرة الحزن ـ التي ملأت عينيه خلف ابتسامته البلهاء ـ لم تكن ترى غير عُري أبيه خلف كل كلمة أراد أن ينطق بها، وعندما أراد اللجوء إلى الكذب ليكشف لهم أن السير في طريق أبيه، والتي قاربت على أيامها الأخيرة بالمصنع، أحب إليه من السير في الطريق التي حلم بها طويلا، عقد الصمت لسانه، فظل بلا إجابات حتى ملأهم اليأس، وتجسدت في عيونهم الدهشة، وأكلت الحسرة قلبه على بسمته التي كانت تُثير هدير تجمعاتهم اليومية على اختلاف تنوعها، وقتلها الاستسلام للغياب.

ربما لهذا تزوج مبكرًا جدًا؛ كي لا يرى أبناؤه انكسار عينيه عند نهاية طريقه في المصنع، وأمسكت يداه بقوة على كل النقود التي قتل نفسه من أجل وقوعها بينهما؛ كي لا يضطره مرور

الوقت إلى قتل أحلامهم القادمة، ظل وفيا لأبويه حتى ماتا في إثر بعضهما، وعندما أصبح البيت الخشبي القديم ملكًا له تزوج من ابنة الجارة التي رفضها أبوه من قبل، يرى الآن كيف اجتهد في إعمار البيت، تاركًا أذنيه قريبًا من شفتيّ زوجته لتملأهما بموسيقى "تمر حنة"، وبكل ما استطاعتا قطفه من أغاني "فايزة أحمد"، ولا بأس أنها بدت نسخة باهتة من أمها، ففيما يبدو الآن أننا جميعا لسنا سوى نسخ باهتة، تسير على آثار الطريق بحرص ووهن، ولا تطأها بعمق مخافة أن تضل الطريق، لا بأس أيضًا طالما أنها استطاعت ـ رغم نقص الروح ـ أن تفتح له المزلاج الداخلي للسور الخشبي القديم، وأن تعالج جروح كفيه حتى ذاق حلاوة الوجود تحت ما يشبه الضوء الأبيض، ولا بأس أبدًا في نهاية الأمر أنها لم تستطع أن تهبه سوى بنتين من الأبناء الكثيرين الذين أراد أن ينجبهم منها، أو أنها سرعان ما تركتهما معلقتين في رقبته، وماتت حتى قبل أن يدركهما البلوغ.

تنهّد طويلًا وهو يرى في أعلى جانبيّ الشاشة ابنتيه اللتين حملهما الزواج إلى أطراف المدن البعيدة، وكادت دمعتان ثقيلتان أن تفرا من عينيه، وهو يرى نفسه مجرد خاطر يمر على بالهما من بعيد ـ وقت الحزن فقط ـ وربما كبديل يمكن اللجوء إليه إذا أظلمت شاشة إحداهما، وفشلت روحها في إعادة الضوء إليها من جديد، غير أن البنت الكبرى في يمين الشاشة هشَّتْ بيدها في الهواء إلى جوار رأسها، وهي ترى بسمة زوجها تأتي نحوها من بعيد، وعندما أتتها إشارته تقدمت

نحوه على مهل، كمن يرضى فقط كي يُكمل الطريق، فيما ظلت البنت الصغرى في يسار الشاشة تهز رأسها بالرفض حتى حمل الزوج بسمته إليها، فتقدمت معه على مهل، وقبل أن يواريهما باب الغرفة ألقتْ عينيها على مكان حزنها بأسى، كأنما تنقذ وجودها الهش من أنيابه المشرعة على الموت.

لوهلة وجيزة أراد أن يأسى على نفسه، وهو يرى حياته كلها تمر أمام عينيه على حين غفلة من لا شيء، ويتمنى لو أنه سار على طريق أخرى مختلفة، لكنه رأى نفسه ـ في آخر لقطات الشاشة ـ مقرفصًا بشرود بالغ أمام بوابة المصنع، وشيء ما يبدو فوق رأسه، شيء يشبه غيمة سوداء كبيرة، ظلتْ تتّسع ببطء حتى ملأتْ الشاشة كلها، وعلى مهلٍ ساد ظلام كثيف تواكب مع الوقوف الهادئ للسيارة أمام باب المصنع تمامًا، مصحوبًا بصوت السائق الذي يطالبه بالنزول.

لم يُدهشه اختفاء الهاتف فجأة من بين يديه، لم يدهشه كيف عرف السائق مكان نزوله، لم يُدهشه أنه طالبه بأجره فردين كاملين، أخذهما برضا وكأنهما قد اتفقا مسبقا على ذلك، لكن الهدوء القاتل الذي تجسد أمام بوابة المصنع أدهشه جدًا، كأنه أتى مبكرًا عن موعده، كان أفراد الأمن يفتحون البوابة للتو وكأنهم يفتحون عيونهم من نوم طويل وهانئ، وبدا ردهم على تحيته الصباحية متثائبًا، ومتسائلا بصمت عن سبب مجيئه المبكر، تردّد قليلا فليست هذه بأجواء المصنع التي تتلمس أطراف الصخب، حتى قبل أن تتحسس الشمس جسد الظلام بضيائها

الباهت قبل أن تأتي من البعيد، ربما راودته نفسه على السؤال، لكنه مشى الطُرقة الفسيحة المؤدية إلى باب العنبر بمحاذاة الثقة، ورَجَى كما اعتاد دومًا أن يجد زملاءه جميعًا بالداخل، في مواجهة الآلات التي تتجه الآن نحو سرعتها الكاملة لطحن بالات القطن، وربما اكتملتْ دورة بعضها ليرى خيوط الغَزْل على الجانب الآخر.

صدمه السكون، وتمنّى لو أنه لم يفتح باب العنبر، أو لم يأتِ من الأساس، وصفعته العتمة بلا حدود على امتداد عينيه كحد سكين حامٍ، جَزَّ في جبهته عميقا ليبقى أثره على الدوام، وتراقصت خيوط الضوء الفضية بعينيه في سماء العنبر، وهي تبدو بوهن من فتحات التهوية القريبة من السقف لتُخبره بعدم مجيء الشمس، لكنه لم يصدق أي شيء، ولم يستمع لشيء سوى صوت داخِلِه الذي يُخبره بأنه يحلم، وأنه عما قريب سيستيقظ ليعود إلى حقيقته مرة أخرى، حقيقته التي لم تتخلَ يوما عن أمنيتها الدائمة في أن تكون لحظته القادمة مجرد حلم يسعى إليه، أو يرجو أن يأتيه طواعية عن طيب خاطر، أو أن يهبط عليه من السماء كمعجزة تخصه وحده، صرخ بأعلى صوته بكل كلمات الاعتراض والرفض التي تعلمها، أو سمعها، أو كبتها بداخله على طول حياته التي تبدو له الآن مجرد لحظة تمر إلى جواره سريعا، دون أن يقدر على الإمساك بها، دون حتى أن يقبض عليها ولو بنظرة مدققة من عينيه، لكن شيئا لم يصدر عنه سوى آهة طويلة وممطوطة، مثل صرخة أبكم يعجز عن انقاذ روحه بين شِقَّي رحى في صحراء واسعة ومعتمة،

ولولا أن صداها قد تردد طويلا في فضاء العنبر لم يكن ليسمعها.

عندما مات الصدى في أذنيه ردد في نفسه بصمت:

ـ أنا أحلم، إنه مجرد حلم وسيمر سريعًا.

وصفع وجهه كي يفيق، لكنه لم يشعر بشيء غير السكون والعتمة، وفتحات الضوء الواهنة التي تبدو كنوافذ تـنفتح على السماء، فراح يلطم وجهه بكفيه دون جدوى، جرى كمجنون إلى مكان أزرار الكهرباء التي تهب النور للعنبر، والحركة للآلات، والرؤية لكل الناس الذين يسعون في مساحته الشاسعة، ضغطها لأعلى وأسفل عشرات المرات، لكنها لم تستطع أن تهبه ولو شعاعًا واحدًا من النور، يقدر على إحياء الأمل بروحه التي يشعر أنها تنهار مع كل ضربة توجهها قبضته إلى الأزرار، أحسّ أنه يهوي إلى الأرض فتصلبتْ عضلات قدميه في اتكائهما عليها، واستند بكفيه على جدار العنبر حتى استطاع أن يستعيد توازنه، لكنه عندما جرى مرة أخرى، جرى كمجنون حقيقي لا يعرف لماذا يجري؟! ولا إلى أين يجري؟! كل ما شعر به أنه يهتز ويتخبّط ويوغل في العتمة إلى عمق العنبر، كأنه يهوي في بئر بلا منتهى أو قرار، وعندما دفعته قوة ما للنظر إلى أعلى رأى خطين من الضوء يسقطان من نوافذ السماء، وفي العتمة التي تتكاثر من حوله كسُحُب سوداء كثيفة تَجَسَّدَ الطفل الذي قطع عرض الشارع، والشاب الذي نزل من السيارة مسرعًا، كانا يسيران بمحاذاته بحدة وثقة، ويبتسمان في وجهه كأنما

يحثانه على المزيد من الجري إلى نهاية لا يعرفها، حتى أُنهك تماما، وثقل جسده، ولم تقدر قدماه على حمله ولو لخطوة واحدة أخرى باتجاه العتمة، توقف لاهثًا واتكأ بكفيه على ركبتيه، كان يحاول استلاب قدر كاف من الهواء يُسكت به صراخ رئتيه، لكنهما امتلأتا بالعتمة، وامتلأت أذناه بصخب التصفيق والصفير المحموم للطفل والشاب، اللذين استمرا في تحفيزه على مواصلة الطريق، كان لا يرى شيئا غيرهما وسط العتمة التي سيطرت، لكنه حين رفع وجهه باتجاههما، مندهشًا ومتسائلًا، رأى نفسه قريبًا من نهاية العنبر، ورأى في حائطه الأخير ثقبًا دائريًا يكفي لعبور فرد واحد فقط، ويفتح على غرفة صغيرة ومدهونة بما يشبه الضوء الأبيض، تأوه الطفل والشاب كأنهما فوجئا باكتشافه لوجود الغرفة، فامتلأتْ روحه بالقلق، وظل يحدق بعينيه نحوها، وكلما أمعن النظر إليها ازداد الثقب اتساعًا في عينيه، وكشفت الغرفة عن محتوياتها، كان يرى أجسادًا بملابس بيضاء واسعة، تقف في ضوء أبيض ويرفرف الهواء ملابسها إلى الداخل، وعندما بلغ الثقب آخر اتساع له كشف عن وجوهها أيضًا.

هالهُ أن يرى زوجته تقف بصمت، مغمضة العينين، وعاقدة ذراعيها على صدرها في سكون عميق، كأنها تنام منذ عشرات السنين بلا صخب، ومن خلفها رأى أبويه على ذات الحال، ومن خلفهما رأى ـ إلى آخر امتداد عينيه في العمق الغائر ـ الكثير من الأجساد البيضاء الصامتة والملتحفة بالسكون، لم يكن يعرفهم، لكنهم جميعًا فتحوا عيونهم نحوه بشغف مع اكتمال

اتساع الثقب، جميعهم بدوا وكأنهم ينتظرونه على موعد مسبق، ومع تهلل وجوههم بفرحه الوصول انفك انعقاد أياديهم عن صدورهم فامتدت نحوه، وبدتْ كأنها تنادي عليه بصمت وهدوء وسكينة، ليعبر الثقب، ويقف إلى جوارهم.

غير أنه لم يعبر، بل امتلأ بالمزيد من الرعب الذي بعث في روحه انتفاضة لم يذق طعمها من قبل، ولم يسعفه الوقت ليعرف إذا ما كان قد استلذّ له أم لا، لقد انتبه على هزّة قوية أصابت جسده كله، فاعتدل ليقف بثبات وقوة في مواجهة الطفل والشاب، وكانا قد انتبها أيضًا مثله، وكأن الانتفاضة التي أصابته قد أصابتهما في ذات الوقت، فامتلأوا جميعًا بحماس غريب يشبه الحُمَّى، ورغبة عارمة في الجري والهروب من مجهول لم يتبينوا ملامحه بعد، وإحساس مبهم بأنهم يهربون إليه، وفي نفس الوقت الذي انطلقتْ فيه ساقاه للعودة والهروب باتجاه باب العنبر، كان الطفل والشاب ينطلقان بذات السرعة باتجاه الثقب، وبمجرد عبورهما فيه انسد من خلفهما كأنه لم يحدث من قبل، وعندما سادت العتمة من خلفه كان قد عبر باب العنبر بالفعل، وقطع من الطُرقة التي تفصله عن بوابة المصنع مسافة لا بأس بها، مسافة كافية لكي تقذفه بعد خطوة واحدة فقط لعبور البوابة الكبيرة، وتلمُّس أطراف النجاة، إذا استطاع أن يطير إليها.

هكذا استجمع كل ما بقي بداخله من قوة، وطوَّح جسده في الهواء، كان يفرد ساقيه على اتساعهما عندما رفع عينيه ليتأكد

أنه يطير إليها، لكنه لم يرَ شيئا على الإطلاق، ولم يلمح سوى عدستيّ عينيه السوداوين وهما ترتفعان إلى أعلى مما أراد لهما، وتختفيان داخل جسده، وضوء أبيض عظيم يطوي البوابة كلها، فتختفي داخله، ويتجسد فيه سائق سيارة الأجرة كائنًا خرافيًا لا قِبَل له به، وله جناحان عظيمان، حين فردهما نحوه سقط فيهما تمامًا، اعتصره الجناحان فخرج زبد أبيض من أنفه، وأحس بجسده يسقط في الأرض، لكنه اطمأن وهو يشعر لأول مرة في حياته كلها بالخِفَّة، ويتقلب في نعومة الريش، وفرح كثيرًا وهو يرى كل شيء من خلف الضوء.

بيتُ مريم

وهل كان أمامي خيار آخر؟!

أقف الآن من بعيد، لكنني أرى بوضوح تام، ورغم المسافة الشاسعة التي أشعر أنها تفصلني عن كل شيء، ولا تتيح لي سوى الرؤية بعين المحايد الذي لم يعد يخصه شيء مما حدث، إلا أنني أموت وأحيا آلاف المرات مع كل صورة تتجسد أمام عينيّ لمريم، كأني لا أزال مغموسًا هناك في التفاصيل الموغلة في البُعد، ولا أكاد أعرف على وجه الدِّقة، ما الذي يشدني إليها كل حين؟! وبكل هذا الإصرار العجيب الذي انتابني مؤخرًا منذ بدأت علاقتي بصفاء، وانتهى بصفعة الحلم المُقبض في روحي، كأن ما بقي من حياتي يتوقف على النظر إلى ما قد فات منها بالفعل، كأن سرًا دفينًا لا يزال يقبع مخنوقًا هناك، ويومئ لي بإلحاح كي أنقذه من تحت أرجل الوقت التي تشابكت في اقتتال عنيف، وأثارتْ الكثير من الغبار الذي ظلّ يتراكم من فوقه حتى انطمستْ معالمه في الأرض، ولسبب لم أستطع فكَّ شفرته أحسستُ أن السِّر يخصني وحدي، وأنه ـ

ولأربعين عامًا مضتْ إلى الآن ـ لم يكف عن اللهاث من خلفي، أو لعلي كنت أهرب منه، وكانت ذاكرتي الحادة تساعدني في محو الصور، بمجرد أن تتراءى لي على البُعد أُبعد عينيّ عنها، حتى ظننتُ أنني نسيت، ولم تبق سوى أوقات السعادة الحقيقية التي وهبتني مريم إياها، اعتقدتُ أنني أُولد من جديد، أن أحلامًا جديدة وكبيرة تتوالد وتتضخّم بداخلي، فلم أكف عن الجري من خلفها، صنعت لنفسي ركنًا آمنًا بمنزلي، ولم أُلقي بالًا للعثرات، ولا لحجم الفقد الذي يتسرّب من روحي، إلى أن أخبرتني صفاء بأنها تريد قلبًا باتساع العالم كشرط لوجودها إلى جواري، وحتى داهمني ذات ليلة ذلك الكابوس المقبض الذي صفعني بقوة، فأصبحتُ بلا خيار، وسِرتُ بلا إرادة إلى البيت القديم، كمجنون يبحث عن روحه.

لم تكن مريم جدتي، كانت جدة أطفال الشارع كله، جميعنا شبع من حلوتها، وتمرغنا في طيبتها البكر، وأصابتنا منها تلك النظرة الحانية التي تشبه حضن الأم عندما نمرض، لكن أحدًا منهم لم ينتبه، ربما لأن عيونهم كانت تنظر هناك، في كل الأماكن التي تقبع بهدوء شديد خلف ظهر الأمهات وهم يحتمون بأحضانهن، بينما علقتُ أنا بعينيها.

كنا يتيمين ووحيدين، مريم بلا أبناء وأنا بلا أم، غير أن الصمت الحاني الذي تبادلته أعيننا على مدار طفولتي كلها، أفلح في إدخال الطمأنينة إلى روحي، كما كان يُفلح دائما في سد الشقوق التي تتسرب مع الزمن إلى باب بيتها الخشبي، ويسند

وقفته الواهنة، وظلّ البيتُ دافئًا به لسنوات طويلة، ماتت مريم قبل مرور الكثير منها، وكبرتُ أنا بوهجه على البُعد، فقد كانت نظرتها بمثابة عينين مضافتين لي وأنا أمشي في طريق الحياة، أحُدُّ السير وعيناي إلى الأمام، فيما اختارت عيناها أن تثبتا على الطريق كأنما لتحذراني من حُفَر الدنيا، حتى بدأتْ صورتها تتوارى في صخب المسافات، وبدأتْ قدماي تعرفان كيف يكون الزلل، وها أنا ذا أقترب من النهاية ولا أزال أقع، أتمسك بوجود صفاء إلى جواري بكل ما بقي بداخلي من قوة، وقدرة على مواصلة الحياة، ولا تزال الطريق ـ رغم شيخوختها الظاهرة ـ تهبني من الألم بأكثر مما تتيح لي من اللذة.

لفترة طويلة ظللتُ أشعر بنفسي فارغا، كأن جزءًا ما فُقِدَ من روحي، وعندما ألح عليّ الحلم بزيارة بيت مريم دخلني يقين بأنني سأجده هناك، لذلك أسميته الكنز، ومع الدفعة الأولى للباب الخشبي القديم شعرتُ أن داخلي يمتلئ، أن حالة العطش والفراغ التي عذبتني بها الأحلام طوال الفترة الماضية تتلاشى، وهي تسير الآن نحو الارتواء.

أخطو بحذر كامل، ليس لأن الصرير الذي أحدثه انزياح الباب الخشبي القديم إلى الداخل، أنبت في جسدي قشعريرة رجته، كأن حد سكين حامٍ نحر في رقبتي قويًا، وأحدث ذلك الامتعاض المقبض الذي هاجتْ له معدتي حتى الغثيان، ولا لأن الغبار الكثيف الذي اندفع فجأة من شقوق الخشب المتآكل، ومن الحفر الصغيرة التي تجاور عمود الباب في

الحائط الطيني، كأنما عيون مغمضة لأشباح ترقد بذات الحذر في أزمنتها البعيدة، قد أثار جيوبي الأنفية الحساسة، ودفعني إلى نوبة مزعجة من العطس المتواصل، لقد اهتز جسدي لكنه ثبت في نهاية الأمر الذي لم يستغرق كثيرًا من الوقت، فيما الباب الخشبي القديم يفتح أمام عينيّ بئرًا عميقة من الأسرار المطوية على الظلمة والغموض.

جاورني الخوف، وأحسست بأطرافه الرخوة تكبل يديّ وقدميّ، لكنني خفت أكثر عندما بدأ ينفخ دفقاته الهوائية السريعة في قلبي، ويدعوني بحزم إلى ترك كل شيء والعودة إلى ركني الآمن بمنزلي، غير أن شيئا ما بداخلي بدأ في الزعيق المقابل كأنما ليُطمئنني، وظل يُخبرني بإلحاح أنه من العبث أن أصغي إلى كل هذا الخوف، إنه مجرد صوت فارغ قد يُحدث انزعاجًا مقلقًا، لكنه لا يُفضي إلى الموت، ولأنني كنت مدفوعا بوسوسة حلم البارحة، وإلحاحه المزعج للدخول إلى بيت مريم، والعثور على الكنز، فقد ارتكزتُ على طمأنينته سريعا، بإرادة أو بغير إرادة، لا أعرف، لكنني رأيت الخوف وهو يتبدى لي كأنما خاطر سريع مرَّ على بالي بلا أثر، فبدأتْ قدماي في الخطو.

بدتْ البئر عميقة بالفعل، رغم أن بيت مريم لم يكن غير سقيفة طولية فارغة تنام خلف الباب، وينام في عمق مؤخرتها صندوق مريم الخشبي بنفس هدوئه القديم الذي كانت تعامله به، وفي الركن الآخر للعمق، المواجه للباب، بدتْ فتحة السلم المؤدية إلى السطح كأنما عين مفتوحة على سماء تختبئ هناك في

الفضاء المتواري بفعل السطح المهترئ، وتكمن بحياء امرأة لم تتفتح عيناها يومًا على عورات الرجال، لكنها تستمد رؤيتها من ضوء الشمس الصباحية اللينة، فتظهر درجات السلم الطيني بُنِّية قاتمة، ومدثرة بغبار كثيف وواثق من سكونه الآمن، رغم عدم قدرته على إخفاء الآثار العميقة التي تركتها أقدام مريم الطويلة على حوافها الأمامية، وقد أرغمته أن يتشكَّل على هيئتها، فبدتْ كتوابيت موتى تراصتْ بانتظام شديد وهي تسير إلى أعلى.

لفحتني نسمة هواء باردة، أتت من صباح الشارع البكر واندفعتْ إلى بيت مريم كأنما عن عمد، فألقتني في البئر، ارتميتُ على المصطبة الطينية التي تتوسط طول السقيفة بين الباب وعين السلم، ومال جسدي حتى كاد وجهي أن يلامس التراب الكثيف الذي يفترش سطح المصطبة، وينتظر منْ يفتته إلى ذرات من الغبار المنتشر، والقادر على تلويث البيت كله، لكن النسمة المقابلة التي أتت من أعلى عبر عين السلم أعادتْ إليّ توازني، فاستويتُ في جلستي على المصطبة، رحتُ ألهث لالتقاط أنفاسي من الدخول المفاجئ، وطمأنتُ نفسي بأنني جئتُ لأدخل على أية حال، فلا بأس أيضًا من وجود العتمة التي تتراص خيوطها في فضاء البيت أمام عينيّ كطبقات من صخر أسود، استمدتْ صلابتها من طول الوحدة، وقَتْل مرور الزمن للهواء بين كتلها الضخمة، فتراكمتْ بعناد تليد لم يأبه لوجودي، ولم يؤثر فيه اكتمال الممر الضوئي الذي تشكَّل على مهلٍ من انعكاس أشعة الشمس في الخارج بين الباب وعين السلم،

ربما لأن العتمة أيضًا رأتني مسجونًا داخل الممر الذي بدا كصندوق حديدي معلّق في فضاء مظلم، ومحاطا بملايين من ذرات الغبار التي أظهرها وجوده الخافت، ولا يزال الخوف يدثرني بأذرعه الرخوة على البُعد، وأنني وسط كل هذه الفخاخ لا سبيل أمامي على الإطلاق للعثور على الكنز، وإن زرع حقيقته بداخلي كابوس مقلق، فهل كنت أحلم حقًا؟! أم أن الأحلام لا تزال على عهدها القديم معي، سبيل لا ينضب معينه أبدًا لإزاحة الأحمال، والوصول إلى الهدوء؟!

مع الهدوء الذي بدأ يلفني، بدأ تنفسي ينتظم، وبدأتْ ذرات الغبار في الممر تتشكل على هيئة جسد أنثوي طويل ومفعم بالرشاقة والبياض، ولسبب ما تشكَّلتْ على صورة مريم وهي ترفع وجهها نحوي بهدوء عميق، وابتسامة قمر مكتمل داخل دارته المنيرة، كانت تغزل كعادتها، كرتان من الخيوط السوداء والبيضاء تدوران في حجرها كأنما طفلين تحت تأثير هدهدة أم حانية، فيما يشتبك طرفاهما في الأعلى حول سِنَّيْ إبرتين غليظتين، ولا يجدان مهربًا من عينيّ مريم المترقبتين كعينيّ صياد ماهر، لا يكل من نصب الشِراك لفريسته الثمينة، وكنت أهرول لاهثا للاختباء من الأولاد في لعبة "الأستغماية"، فقادتني قدماي للوقوف على عتبتها، استشعرتْ بسمتها اللعبة، واهتز رأسها باتجاه الصندوق، فوثبتُ داخله كفأر لين.

يبدو الظلام والصمت كأنهما حكمة الروح عندما تتخفف من أثقال الجسد، جناحاها المفرودان على البراح في طيرانها

المحموم باتجاه أفق لا ينتهي، هكذا أتاح الصمت لي أن أسمع صوت مريم وهو يتردّد بداخلها قويًا ومبتسمًا، وربما ممتلئًا بالحزن والأسى على الأيام التي لا تكف عن الانفلات من بين يديها وهي تغزل:

ـ لا نفعل شيئًا في طفولتنا سوى الاختباء.

كما أتاح الظلام لي أن أرى الأولاد من ثقب دائري صغير يرقد إلى جوار القفل، وهم يقفون على عتبة البيت بعيونهم المتسائلة عن مكان اختبائي، بينما تفترش عين مريم براءة الذي لا يعرف شيئا قط، ولم يرَ شيئا على مدار حياته كلها.

مريم لا تكذب، لكنها تعرف كيف تلوذ إلى السكون عندما تريد أن تخبئ الحقيقة بداخلها، هكذا ظلت ساكنة حتى يأس الولد الذي كان عليه جمْعُنا من أماكن الاختباء من أن تجيب عليه، وبدأت قدماه في النزول من فوق عتبة البيت لتغوصا في الشارع، كان قد كشف الأصحاب كلهم، فاجتمعوا في عرض الشارع ليعلنوا انتهاء اللعبة بفوزي، وكنت أُطلُّ عليهم من فوق السطح فاردًا ذراعيّ كأنما فارس مغوار يُحصي عدد الرؤوس التي تساقطت من تحته، هاج الأولاد فرحًا، وتقبلوا فوزي عليهم، كأن لكل منا مريم التي تحبه، وبيتها الذي تخبئه فيه، وسطحها الذي يجلس عليه تحت عين الشمس، لتتأمل عيناه من فوقه الجارة وهي تلقم ثديها المكشوف لرضيعها النهم، وتنثر قطرات اللبن على وجهه كأنما تستمتع بصوت صراخه الجائع، فيما إخوته الذين تجاوزوا حد الرضاعة تتلوّى بطونهم

من الجوع واللهفة، وهم يتناثرون خلف بعضهم في صف طويل تحت قسوة الشمس، من السطح المجاور لبيت مريم وحتى القبور.

ـ الصندوق أمامك تماما كما تركته مريم لك.

بدا صوتُ الروح ملحًا كما صوت الحلم وهو يدفعني لاكتشاف الصندوق، ويفك تلعثم قدميّ باتجاهه، حتى وجدتُ القفل بين يديّ، وضبطتُ نفسي وأنا أفكر في كيفية إزالة الصدأ الذي تراكم عليه في مرور الوقت، لأتمكن من فتحه، ولم تكن المهمة صعبة رغم إيغالها في الألم، ففي مرور الوقت ـ خصوصًا عندما تطرق الشيخوخة أبواب روحك ـ لن تفعل شيئًا سوى محاولة إزالة الصدأ الذي تراكم من خلفك، ستسعد كثيرًا بقدرتك على إمساك الشاكوش، ربما بنفس القوة التي كنت تمسكه بها من قبل، وستطرب أذناك للدوي الصاخب الذي يُحدثه ارتطام رأسه برأس القفل، ستعتبره دليلا على أن شمسك لم تغرب بعد، وأن ثمة إشراقات جديدة لا تزال تنتظرها كل صباح، ورغم الألم الذي سيعتصر روحك من الداخل لن تلتفت لانفلات الشاكوش المتكرر نحو إصبعك، ولا حتى للدم الذي سيتناثر منه إثر تهتك الجلد، أو تطاير الظفر.

أوجعني إصبعي حتى حد انقباض الفكين على شفتي السفلى، ووقوفها على حافة الاحمرار الدامي، لكن انكسار قفل الصندوق، ووقوعه على الأرض بكل كتل الصدأ وزمنها الموغل في القِدم، أسعدني إلى حد نسيان الألم وتلاشيه، وكأنه كان

يهبط مع بقايا نتف الصدأ وحبيباته الدقيقة التي تطايرت في الهواء، ثم سرعان ما تهاوتْ إلى الأرض فوق جسد القفل ـ بعدما ذهبت عنها قوة اندفاع الضربات المتتالية ـ لترتكن إلى موته الهادئ، وبالكاد صرتُ أشعر بالألم بعدما امتصصتُ مكان الضربة في إصبعي، حتى ألم شفتي السفلى تلاشى، ولم يعد أمامي سوى أن أمد يديّ لأفتح الصندوق، وكلي أمل ألا يتراجع إلى الوراء كما تراجعت يدا صفاء وأنا أضع الخاتم بإصبعها، عقدتْ يديها على صدرها، وواجهتْ بسمتي بصمت وتردد حتى انطفأتْ على وجهي، وهي تنهض لتغادر المكان، تاركة جملتها الأخيرة على المنضدة كمتاهة كبيرة لبحيرات من الملح، ولا سبيل للخروج منها:

ـ لم يعد أمامنا الكثير من الوقت، وإذا لم تُدْركُ سنظل وحيدين إلى النهاية.

لكنها لم تستطع أن تخبرني، من أين لي أن أشتري قلبًا باتساع العالم لأقدمه لها، مثلما اشتريتُ هذا الخاتم؟!

بدا سقوط يديّ الوئيد داخل الصندوق مرتعشا، بدت أصابعي كأنما أقدام ضالة، تجوس في مجهول موحل لغابة مظلمة، وممتلئة بالأحراش، وقبضتُ على قلبي وهو يمتلئ قلقًا، ويعبئ داخلي كله بتصورات أسطورية لما يمكن أن تلاقيه أصابعي الضالة، وسط كل هذا التوهان الممتلئ بالمخاطر التي لا أراها، وشَكَّلَ الفراغ المظلم للصندوق بعمقه الغائر فضاء هائلا أمام عينيّ، ظهرت في سمائه المَرَدَة والشياطين

والجنيات الجميلات اللاتي تخطفن الأطفال وتحولنهم إلى عفاريت بغية الزواج بهم، وسعتْ في أرضه الموحلة الحشرات والعقارب والثعابين، وكانت جميعها كائنات متوحشة، فتحتْ أفواهها على جوع عظيم، وهي تخرج الآن من ظلامها وأزمنتها الموغلة في القِدَم، لتسد نهمه الذي لا يشبع، ولا يرتوي، توجستُ بكل الخوف الذي استطاع داخلي أن يمتلئ به، وترقبتُ انقضاضها على أصابعي في أية لحظة، حتى أنني شعرت بالدم وهو يتدفّق من تحت أظافري حارًا، وحاملا لألم مرعب، لم أستطع احتماله إلا مع خروج آهات طويلة وزاعقة من أعماق داخلي الممزق بالرهبة، آهات تشبه الصراخ، وتدفع أصابعي كلها؛ لتجوس بعشوائية مجنونة في ساحة الصندوق، بحثًا عن مهرب ملائم وسريع ينقذها من الجحيم الذي ألقتْ بنفسها إليه، ولم تبالِ أبدًا أنها بعثرتْ كل محتويات الصندوق إلى الخارج.

افترشتْ المحتويات الأرض بذات العشوائية التي كان يفرش بها أبي بضاعته في شارع السوق، بمجرد أن يفتح باب المحل في الصباح يبدأ بإخراج بضاعته إلى الشارع، ورصها بلا نظام على طاولة رفيعة بامتداده، كل ما كان يبذله من جهد أنه يجعل الأشياء التي تشبه بعضها، إلى جوار بعضها أيضًا، تاركًا كل شيء لعينيّ المشتري وأصابعه العابثة.

لا ينهر أحدا

لا يتدخل في رغبة أحد

لا ينظر إلى أحد بغضب إذا تركه ومضى

ولا يرد إلا لإجابة سؤالهم الدائم، بكم هذه؟! كان يُسميها "عشوائية الجذب"، وأخبر نظرتي المندهشة باتجاهه، أن الناس يخافون جدًا من ترتيب الأشياء المنمّق داخل المحلات، مهما امتلأتْ جيوبهم بالنقود، ولا يحبون البائع الذي يزين بضاعته في أعينهم، يحبون الحرية حتى لو أخطأوا في الشراء ألف مرة، وأن يشعروا دائمًا بأنهم يرتفعون ولو بدرجة واحدة عن المكان، حتى لو احتوى على ضالتهم المفقودة، هكذا تعلمت من أبي كيف أكون تاجرًا شاطرًا، لا يمل الناس من محبته، أو المجيء إلى بضاعته، ولا أعرف كيف جذبني السوق في مرور الوقت من بعده إلى إعادة ترتيب المحل، وحشوه بالأضواء المبهرة، وتزيين كل شيء فيه حتى تضاعفتْ قيمته لعشرات المرات، كيف لم أُلقي بالًا للعثرات التي واجهتْ طريقي، ولم أهتم لحجم الفقد الذي راح يتسرّب من حولي، حتى أنني صرتُ أكتفي بوجود مشترٍ واحد فقط لبضاعتي كل يوم، طالما أن هيئته تتناسب مع شكل المكان الجديد المبهر.

لو رتبتُ الأمر ألف مرة بقصد وعناية، لم أكن لأضع الأشياء الصغيرة التي بعثرتها عشوائية أصابعي من صندوق مريم إلى الأرض، بهذه الأهمية التي تكشفتْ أمام عينيّ وأنا أحدّق فيها، الخاتم الفضي الذي تركته أمي، الطاقية البيضاء التي غزلتها مريم لي، الأجندة الصغيرة التي كنت أدوّن فيها كل شيء عن الأشياء التي أمر بها، وتمر بي، صورة البنت ليلى ـ زميلتي في

الفصل ـ الصورة التي سرقتها من حقيبتها أثناء غيابها في الفسحة، بعدما تبادنا أول نظرة لينة بيننا، وأحسسنا أنها تختلف عن كل النظرات التي تتبادلها مع بقية الزملاء، وصورتي "الأبيض في أسود" وأنا صغير، محتفظة بذات الابتسامة التي تتلألأ الآن في عينيّ بدهشة، وكأنني أعثر على كنزي المفقود، كل أشيائي الصغيرة التي ظننتُ أنها ضاعت مع الزمن الذي ولَّى تتجسد الآن بين يديّ، كأنما حقيقة تضع في مواجهتي مرآة كبيرة وصافية اللمعة، كبيرة كأنها تسع العالم، وصافية بحيث أنني أرى كل شيء، فأنتبه كأنما أجيء من غفلة طويلة بلا أحلام لأنظر إلى أعلى، فهل كان لابد من صعود السلم، والاستواء على السطح؟!

سقوط المطر في فصل الشتاء، وهطول أشعة الشمس في بقية العام، لا يجسدان شيئا أمام عينيّ سوى السطح، كانت مكافأة مريم عند الرضا أن تتركني أصعد السلم لأفرد ذراعيّ هناك في براح السماء، وكانت السماء تقذفني بمائها، وتهبني الشمس من دفئها، كأنما مكافأة أخرى تعدل كرم مريم وابتسامتها الملائكية، بينما ظلّ السطح دائمًا لا يُجسد لي شيئًا سوى صورة الجارة، التي كثيرا ما حذّرتني مريم ـ مثلما حذّرني كل الناس الذين يهمهم أمري ـ من الاقتراب منها، كانت قرينة مريم وضُرَّتها في كل شيء، غريمتها الأساسية التي لا تكف ولا تستحي من السخرية منها، أو ذكرها بالسوء والامتعاض في كل مكان، وكنت أستغرب منها ذلك كثيرا، ولا أتوانى عن طرح الأسئلة حوله دون أن أتلقى أية إجابة شافية، لا من الجارة ولا

من مريم أيضًا، لا شيء سوى أن كل واحدة منهما بدتْ في عينيّ نقيضة للأخرى، فأشعرني هذا الإحساس بالهدوء، وارتاحتْ نفسي وأنا أُلقي بتحذيرات مريم، وتحذيرات كل الناس معها، خلف ظهري وأنا أصعد السلم، لا أُنكر أنني في بدايات وقوفي على السطح كنتُ أشتاق إلى مريم كثيرًا، وربما وددتُ في كثير من الأحيان أن أهبط جريًا إليها، أن أخبئ وجهي في صدرها حتى تتوارى عيناي في البعيد المظلم، لأحتمي من أفعال الجارة التي كنت أحسها وقحة إلى أقصى مدى، ولم أجد لها ـ في هذه السن المبكرة ـ أي تفسير يجرني باتجاه الهدوء الذي أشعر به في جوار مريم، ما الذي يمكن أن يشير إليه ذلك الفعل المجنون للجارة، وهي ترش لبن صدرها الحارق تحت عين الشمس على وجه رضيعها، بينما فمه مفتوح على الجوع والعويل؟! وكيف طاوعها قلبها أن تُلقي به على تراب السطح ملفوفًا في صراخه الدامي، لتهدهد بكفين حانيتين تكور بطنها على جنين آخر، لم يولد بعد؟! كنتُ أرى جنونها يتراقص بفرح طفولي في مسافة الرؤية التي تصل بين عينيها الحادتين وكفيها الهادئتين على بطنها، وكنتُ أموت رعبًا كلما نظرتْ إليّ بطرف عينيها، فأخبئ وجهي بكفيّ، بدتْ كأنها تريد أن ترى تأثير جنونها على ملامحي، لتحدد ـ مثل الجنيات اللواتي تخرجن من السواقي مع هبوط الليل على الغيطان وحواف الترع المظلمة ـ اللحظة التي ستخطفني فيها، وتلقي بي إلى جوار أبنائها الذين كلما كبروا على السطح، تُلقي بهم إلى ساحة بيتها الواسع، حيث يعوي بقية عيالها الذين يأكلهم الجوع في

الأسفل، وكنتُ أخاف أن تقرأ كل الأسئلة التي تدور في عقلي نحوها، فأصير عاريًا في مواجهتها، وفريسة سهلة لا تحتاج إلى الكثير من الوقت أو الجهد حتى يتم التهامها بشكل كامل، لكنني مع الوقت وجدتني أركن إلى جنونها بأريحية تسربتْ إلى داخلي على مهلٍ، ولم أنتبه لتسلله إلا مع اكتماله في روحي، وقدرته على غرس سؤاله في عمقها الدفين، هل يشبه حضنها حضن مريم في شيء؟! هل يستوي الجنون الذي يشرع مخالبه على نهم لا يشبع، بطيبة مريم ونظرتها الهادئة؟! وإلى متى سأظل هكذا، أقف بسكون كامل، وحيرة لا بأس بقدرتها على إحداث القلق، بين نداء مريم ونظرة الجارة الخاطفة؟! وكانت الأسئلة دومًا بلا إجابات، لكنني كثيرًا ما ضبطتُ نفسي وأنا أصم أذنيّ عن النداء، وأستمتع بالنظر إلى الجنون، كأن عينيّ الجارة لم تكونا غير خطاف ألقته بعنف لينخر في روحي فقط، وعندما اطمأنتْ إلى اشتباكه بها بدأتْ في جره نحوها بهدوء وحرص، وكأنها كانت تعلم مسبقا أنني لا أحب شيئًا في الحياة، أكثر من أن تظل هادئة من حولي، وأنا أمارس الصخب.

عذّبتني الأسئلة حتى وقعتُ على الأرض فشدَّتْ الجارة الحبل حول رقبتي بوهن، بدتْ كأنها تقيس بخبرة صياد ماهر مدى انجذابي نحوها، وكنت أموت بداخلي مخافة أن تشعر مريم بصوت احتكاك جسدي على سطح بيتها، أو أن يُسقط اهتزازه من تحتي التراب فوق رأسها بالأسفل، وهي تغزل طاقيتي البيضاء التي وعدتني بها كهدية لنجاحي، وانتقالي إلى المرحلة الإعدادية، أمسكتُ الحبل حول رقبتي بيديّ، وقبضتُ عليه قويا

لأوقف زحفي نحو الجارة، فساد الصمت بيننا، لكنها بدتْ وكأنها تقرأ كل ما يدور بداخلي، وكأنني كتاب مفتوح في مواجهة عينيها اللتين تعرفان كيف ومتى تمدهما إلى ما تريد، هكذا مدتْ عينيها باتجاه مريم في الأسفل، وابتسمتْ بلؤم وهي تهمس:

ـ أترى، مريم لا تسمع، ولن تشعر بشيء.

بدا صمتي إشارة، وعندما شدَّتْ قويا انقذفتُ نحوها ملهوفًا أعبر الحائط الصغير بين السطحين، وكأنني كنت أنتظر اندفاعي إليها.

حضن الجارة ليس أبدا كحضن مريم، نظرتها ليست أبدا كنظرة ليلى التي حبسها أبوها رهينة لزواج قريب، ونذرها لغياب طويل في روحي، هذا حضن ممتلئ بلهاث وسخونة الأنفاس، كأني أجري، ومحاط بقشعريرة محببة، أنبتها في جسدي كله انقباض ذراعيّ الجارة القويتين حول ظهري، وعبث كفيها به، كأني أتقلب على مجمرة بلا ذنب، ليس سوى أنني موجود فوق سطح البيت ـ ربما مثل كل الناس الذين مروا من هنا من قبل ـ وأحببت أن أعرف مثلهم كيف تكون الجارة؟! ما الذي يجعلها مكروهة إلى هذا الحد؟! رغم أن الجميع يعشقون الذهاب إليها، والارتماء في حضنها، جميعهم تمرغوا على سطحها بغية الوصول إليها، وتعفَّرَتْ وجوههم بتراب قدميها قبل أن ترتفع إلى وجهها، وتنتظر إيماءة القبول التي تؤهلهم للوقوف، والاستواء في حضنها، وتركوا آثار وجودهم فيها علامات بارزة في جسدها الذي لم يتعب يومًا من احتمال ضربات أياديهم

القاسية، وعرقهم المشبع بروائح طين الأرض، وحتى لزوجة مائهم الحارق وهو يجري فيها كحمم بركان ضخم، لا يكف عن الانفجار، ولا يتوانى عن إحداث الألم، أو الكمون داخلها بخفاء الحرباء، إلى أن تقدر على انتزاعه كقطعة لحم باهتة، ونابضة بالعويل.

بدا الحضن عميقًا وحارًا، لم يدع لي فرصة للعودة، أو حتى للهدوء والتقاط الأنفاس، ومع ذلك فقد سمعتُ صوت صفاء بداخلي، يزعق ويتمنّى لو أن مريم تأتي الآن لتنقذني، لكنني كنت مغمض العينين كمسحور رغم أنني أشعر بكل شيء، نهم الجارة وتحولها إلى ذئب جائع، الرعشة في جسدي وتحولي إلى فريسة بلا قدرة على الرجوع إلى الوراء ولو لخطوة واحدة، إلى ما قبل أن يلتقطها الذئب ويمزقها الجوع، ورغم أنني أرى كل شيء بهدوء شديد، كأنني أنظر من بعيد، ولا شيء يخصني مما يحدث، هكذا رأيتُ اهتزاز جسدينا في عراكهما المحموم وهو يهز السطح تحت أقدامنا، ليُحدِث ذلك الدوي المفزع الذي أصم أذنيّ مريم في الأسفل، وأهال على رأسها الكثير من سحب الغبار التي تساقطت من سماء السقف فوقها كسيل جارف، لا يقبل التصديق، ولا قِبلَ لأحد بالوقوف في مواجهته، خبطتْ مريم صدرها بكفيها هلعًا، وانفتحتْ عيناها على ذعر حقيقي، ربما كانت تتوقع حدوثه في يوم من الأيام، لكن دهشتها بدتْ غير قادرة على تصديق مجيئه المبكر، ومع سماع أذنيها لشهقة الاكتمال التي أطلقتها الجارة كأسد يتجشأ، لم يعد أمامها سوى الصعود إلى السطح لتتأكد بأم

عينيها، فصعدتْ بتؤدة وحرص شديدين، كأنها تخاف على نفسها بأكثر مما تخاف عليّ، حتى أن قدميها الرفيعتين الحافيتين كانتا بالكاد تلمسان أطراف درجات السلم الأمامية، وتتحسّسان بصمت شعورها المبهم بأن انتفاضة عظيمة تبدأ الآن في غزو روحها، وتُنذر باقتراب ملاك الموت.

أتت مريم لكنني كنت قد تجاوزت السور بين السطحين بمسافة كافية، وابتلّ جسدي كله بالماء والعرق والرعشة واللزوجة، ومع ذلك فقد انتبهتُ لظهورها كأني أُفيق من غفلة، ووقعتْ عيناها في عينيّ كصفعة مدوية، وكافية لكي تقتلعني من حضن الجارة، وترمي بي إلى حافة السور الواطئ، فاتكأنا جميعا إلى جمود الصمت، كأن الزمن قد توقف، وأوقف معه قدرتنا على الحركة، كأننا تماثيل تظهر بغتة من أزمنتها السحيقة لتنفتح عيونها على صدمة مرور الزمن، وتغير كل الأشياء التي عَرَفَتها من قبل، كنتُ أنظر لعينيّ مريم بندم، وأنظرُ لعينيّ الجارة بخوف البريء الذي وقع في الفخ، وكانت الجارة تنظر لعينيّ باتهام الذي باع بضاعته ولم يقبض ثمنها، وتنظر لعينيّ مريم بشماتة المنتقم، فيما راحت مريم تنظر لعينيّ الجارة بأسى الضعيف الذي لم يعد بيده شيء، وتنظر لعينيّ بقلة حيلة، وأسف الذي فعل كل ما عليه بلا جدوى، وكانت الشمس تصعد فوق رؤوسنا جميعًا لتتوسّط السماء، وتكشف كل شيء.

بدأ جسد مريم يهتز على البكاء، فابتسمتْ الجارة بسخرية، وبدأتُ أنكمش مع كل اهتزازة وكأنني أُخبئ روحي عن روحها التي تموت، وتتساقط مع دموعها، وعندما كانت عيناي هناك مدفونتين في العمق المظلم بين ذراعيّ الملفوفتين حول ساقيّ، وأنا أجلس على السطح، شعرتُ بأن مريم تتقدّم نحوي ببطء، ربما أرادتْ أن تبذل محاولتها الأخيرة للحفاظ عليّ من نهم الجارة، الذي تعرف أنه لن يشبع أبدًا، ربما أرادتْ أن تُخبرني بمصائر كل الذين ساروا على السطح من قبلي، ودهستهم الجارة كلقمة سائغة، أو لعلها أرادتْ أن تغفر لي زلَّتي بالحفاظ على وجودي إلى جوارها أطول فترة ممكنة، وربما أنني تمنيتُ أن يحدث كل ذلك لا أكثر، لكن الذي حدث أنني انتظرتُ طويلًا بلا جدوى، حتى عمَّ الصمت داخلي كله، وعندما فتحتُ عينيّ لأرى كيف يمكن للسكون أن يصيب العالم كله إلى هذه الدرجة؟! انفتحتا على تساقط مريم في الأرض، لم تكن تنظر لعين الشمس الملتهبة في الأعلى فأصابها الدوار، ولم تكن تذهب إلى إغماءة الصدمة مما حدث لي، واعتبرته خيانة للأمانة التي ظلتْ نقية بين يديها طوال اثنتي عشرة سنة كاملة، بل كانت تقف بذهولها كاملًا في مواجهتي، وفي ظل السكون الذي أصاب العالم، تسلّلتْ الجارة إليّ بخفاء الحرباء، ونزعتْ الحبل من حول رقبتي، ثم رأيتها باستسلام كامل وهي تمشي باتجاه مريم، تمشي بثقة وعلى مهلٍ، كمصير لا يمكن الافلات من قبضته، فمريم لم تنتبه حتى، لم تأخذ حذرها ولم يطرف لها جفن واحد، وكأنها مستسلمة أيضا، حتى انتهتْ

الجارة من لف الحبل حول رقبتها، وبدأتْ في تضييق الخناق من حولها، لتفتح لها طريقا إلى الموت، حينها فقط فتحتْ مريم فمها على الصراخ، واستجمعتْ الجارة عزم قوتها من داخلها كله وصرختْ، ولا أعرف لماذا أنا أيضًا صرختُ، غير أن شيئًا من كل هذا العويل لم يستطع الخروج من دواخلنا تحت وطأة سكون العالم من حولي.

أرفعُ عينيّ إلى أعلى من خلال فتحة السلم، كأني أفتحها على الصراخ الذي لا يزال يدوي على السطح، رغم كل هذا العمر الذي ولَّى، أحسستُ أنني انتبهتُ، ولم تعد بي حاجة الآن إلى البحث في محتويات الصندوق، فكنزي ليس هنا، كنزي ليس له بالضرورة أن يكون مدفونًا في باطن الأرض، أو منسيا في ظلام صندوق مغلق، تحت ظلام بيت قديم ومهجور، وأنه من الممكن جدًا أن يوجد هناك في الأعلى، تحت عين الشمس المتوهجة، والقادرة على كشف كل الأشياء، جريتُ ملهوفًا باتجاه السلم، لكنني وأنا أصعد فوق توابيت الموتى، متتبعًا آثار أقدام مريم الطويلة على حواف الدرجات الأمامية للسلم، سألتُ نفسي مندهشا، لماذا يجب أن يكون هناك كنز من الأساس؟! وعندما راح ضوء الشمس يفتح الرؤية أمام عينيّ، أحسستُ أنني سأكون سعيدًا جدًا، ومحظوظًا جدًا، فقط إذا استطعت أن أجد مريم تنتظرني هناك.

انفتح السطح أمام عينيّ، كأنما باب عظيم ينفتح على بئر عميقة من الضوء، فلا يقدر شيء فيها على الاختباء، وبدا كل

شيء موجودًا في مكانه كأن الزمن لم يمر إلى جواره، السماء التي تهب المطر، والشمس التي تهب الضوء، والجارة التي تُلقِم ثديها المكشوف لرضيعها النهم، وتنثر قطرات اللبن على وجهه لتستمتع بصوت صراخه الجائع، فيما يتكوّر بطنها على جنين لم يُولد بعد، حتى مريم بدت في نفس مكانها الذي أصيبتْ فيه بإغماءة الصدمة، أو الخنق، غير أنها كانت ميتة، كأن سكون العالم لا يزال يلفها إلى اليوم، ابتسمتْ الجارة فرحة كأنني أعود إليها، وامتلأتْ عيناها باللهفة كأنها تريد أن تعرف، كيف مرَّ الزمن على الطفل الذي صنعتْ منه رجلا؟! وعندما واجهتها بصمتي ابتسمتْ بسخرية، وهمستْ بشماتة وهي تنظر إلى جثة مريم:

ـ مريم ماتت.

وجعلتْ تُرددها بصراخ وجنون، وهي ترفع رأسها كأنما تلقي بها إلى أعلى، حتى تناثر صوتها في الفضاء، وانتهى عائدًا إلى الصمت، فبدأتْ في ارضاع صغيرها من جديد، ومَلَّستْ على تكور بطنها بحنو بالغ كأنها لا تراني، كأنني غير موجود فعلا في محيط عينيها المفتوحتين دائما على الحذر والترقب.

سرتُ ببطء وحزن باتجاه جثة مريم، تقرفصتُ إلى جوارها كأني أريد أن أتأكد من موتها، بدتْ وكأنها الوحيدة التي مرَّ عليها الزمن من بيننا، شعرها الأبيض، التجاعيد التي ملأتْ وجهها، زرقة الموت على رقبتها من أثر الحبل، عيناها المفتوحتان على الصمت والسكون، جسدها الثقيل البارد، كل شيء فيها كان

يشير إلى الموت، ويدعو إليه، ومع ذلك فقد مددتُ يدي إليها، وهززتها طويلا لأتأكد، فبدتْ الجثة وكأنها كانت تنتظر منْ يوقظها.

لقد شعرتُ ـ مع بدء اهتزازاتي لها ـ كأن رعشة ما أصابتْ أطراف أصابعها، وقبل أن أشعر بأنني أجري باتجاه الجنون ظللتُ أهزها، حتى رأيتُ الحركة وهي تدب في جسدها كماء عذب يجري في أرض قاحلة، وممتلئة بالشقوق، ويكفي لكي تأتي شهقات مريم مثل خرير لا يكف عن العزف وهو يصعد باتجاه الحياة، حتى تحرك كل شيء فيها، اعتدلتْ بدهشة كأنها تأتي زمن سحيق، واتكأتْ على كوعيها كأنما تتشمم ريح طيبة تبعث إليها برسالتها، قبل أن تأتي من بعيد، وظلتْ تنظر إليّ طويلا كأنها تتأكد من عودتي إليها، وعندما تأكدتْ من وجودي إلى جوارها أخذتني في حضنها بلهفة أم تُحوِّط على ابنها جيدًا، لتُبعد عنه الأذى، كنتُ فَرحًا في حضنها كأن شيئًا ما ظل مفقودًا من روحي، وهو يعود الآن إليها لتكتمل، أنظر في الجهة الأخرى إلى كل الأماكن التي تقبع خلف ظهرها بهدوء شديد، لكن عينيّ ظلتا معلقتين عليها بذات الفرح الذي جعلني أرى كل شيء، هكذا رأيتُ التجاعيد تختفي، وسواد جميل وناعم يسيطر على شعرها، رأيتُ زرقة الموت تتلاشى، وعينيها تتفتحان على هدوء آمن، رأيتها تعود كأنما إلى سيرتها الأولى، مريم الجميلة التي لم تكن جدتي وحدي، بل جدة أطفال الشارع جميعا، مريم التي توزع الحلوى، وتبتهج بالطيبة، ولا تكف عن إصابتنا بنظرتها الحانية، وأخيرا رأيتها تعود في الزمن،

تعود بعمق، حتى صارت طفلة بضفيرتين لا قِبل لي بطولهما الذي التفَّ من حولي، ولا بنعومتهما الملساء التي تسربتْ في روحي، حتى ذابتْ فيها، وشملني بياض عظيم إلى حيث لا أشعر بشيء على الإطلاق.

أفقتُ على ضوء الشمس في عينيّ، وكان صحوًا ودافئًا، ووقفتُ على حافة السطح بذات الزهو الذي ملأ قلب الفارس المغوار قديمًا، وهو يُطل من أعلى ليُحصي الأحزان التي تساقطتْ من تحته، وعندما فردتُ ذراعيّ في براح الدنيا شعرتُ بأنني خفيف، أنني أطير بهدوء، وعلى مهل ـ وأنا أقفز إلى الشارع ـ وكأنني أهبط على سلم هوائي من السطح إلى الأرض، ولأول مرة ـ منذ وقت طويل ـ أسير في شارع السوق بثقة، وبسمتي على وجهي، أسير وأنا أعرف وجهتي تمامًا، كأنني أرى كل شيء من حولي، وما يختبئ من خلفه أيضا، ركني الآمن في منزلي يشمله سكون محبب، وصمت مكتوم على صخب الموت القادم، لكنني لن أركن إلى جنته الهادئة مرة أخرى، أعتقد الآن أنني سأظل أسير تحت عين الشمس، بلا رغبة في التوقف، أسير إلى جوار مريم وقد عادت صغيرة وجميلة، أسير بيقين تام بأن صفاء ستأتي، ستأتي وستملأ وجودي من جديد، وعندما أصل إلى السوق سأشتري ما أريد.

أثر المحبة

خرجتُ من جسدي قبل أن يدخل الحوش القديم، فقد بدا بلا أمل في النجاة على الإطلاق، لدرجة أنني شعرت باختناق غريب ومفاجئ، انعدمتْ بداخله كل رغبة في الحياة، وإن بدتْ صغيرة أو بلا فائدة، حتى أن كل الصلات التي كانت تربطني به منذ برهة وجيزة قد يبستْ وتكلستْ، أصابها ذبول غريب، بدا واضحًا أنه تكون على مهلٍ، وتوغل بتؤدة، حتى صار جبلًا عاليًا من الخيبات التي تراكمتْ فوق بعضها مع السنين، ثم انتشر كسرطان غاشم ليتربع على ساحة الجسد كلها، حتى أحسست أنني غريبة عنه، أنني لم أعد أنتمي إلى هذا المكان، وأن موعد مفارقتي له بات وشيكًا، ورهينًا للوقوع المحقق في أية لحظة، هكذا جربتُ مسرعة لأجمع أطرافي المتناثرة في ثنايا الجسد، لم يكن يهمني التعرف عليها في هذه اللحظة، وقد صرتُ كيانًا واحدًا ومتسقًا، ولا انتبهت إلى ذلك الشعور الخفي الذي بدأ يتملكني للإحساس بالذات، بل تكورت على نفسي كأنما أحميها من مجهول أكبر، ولا قِبَلَ لي به، ومع الاهتزازات العنيفة التي

راحتْ تمرجح جسد يوسف في كل الاتجاهات إثر سقوطه في براثن الموت، وجدتني أتدحرج بلا إرادة لأستقر في نهاية الأمر قريبًا من أنفه، وبلا إرادة أيضًا وجدتني أجلس باستعداد كامل في انتظار تلك اليد الملائكية التي تجسّدتْ فجأة من المجهول البعيد، وراحتْ تمتد نحوي، فانتابني إحساسٌ عارمٌ أنها مَنْ ستنتشلني من هنا عما قريب.

مع هروبي المفاجئ بدا يوسف مترنحًا في خطواته باتجاه الحوش القديم، كان يهرب بغيبوبة شبه كاملة من مجهول يترصّده في الوراء الموغل في الظلمة والخوف، وبلا ذنب كان يشعر بخطره القريب، وثقله الجاثم، وقدرته على اللحاق به في الموعد الذي استشعره من قبل بيقين كامل، وفي ذات المكان الذي أحسَّ أنه سيكون آخر ما تراه عيناه قبل أن تتغلقا إلى الأبد، لذلك لم يكن يريد الدخول إلى الحوش القديم تحديدًا، وتحاشى ذلك بكل ما بقي له من وعي في دروب الخوف، والظلام المقبض، والجري اللاهث بلا غاية سوى الهروب، لكنه أحسّ بشيء ما يسيره إليه بقوة، وربما بعمد، كأنما يسير إلى مصير معلوم، ومُعد له سلفًا، فأسلم نفسه له طواعية، غير عابئ بالظلام الذي بدا مثل وحلٍ كثيفٍ يعيق تقدمه المرتجف، أو بخطر الوقوع في الساقية التي تتوسط أرض الحوش، أو حتى بالأصوات المفزعة التي تنقذف من الزروع المحيطة، ومن الجبل البعيد العالي من خلفها، ويختلط فيها عواء الذئاب بنباح الكلاب ونقيق الضفادع، في إيقاع مدوي وصاخب وقادر على زرع الخوف والفزع.

وقف يوسف على بُعد خطوة واحدة من سور الساقية الواطئ المتهدم، ولسبب ما أحسّ بدبيب الحياة يعود إليه مرة أخرى، أن الغيبوبة تتلاشى رويدًا من رأسه وتذوب في الظلام الممتد من فوقه، وأنه يتذكر الآن بوضوح كامل، خوف أبيه الدائم من المجهول، فيعرف أن ليس عليه أن يسير في ذات الطريق التي رسمها له من قبل، أن عليه أن يواجه لحظته بيقين وشفافية لطالما تمسك بأذيالهما المهترئة، وجعلهما مكان عينيه، وأن المجهول ليس سوى تلك البذور الصغيرة التي نخبئها بدواخلنا مع كل قلق يعتري خطواتنا في الحياة، ثم نراكم عليها جبالا من التيه والنسيان، متناسين قدرة الزمن على رَيِّها، والنفخ فيها من روحه، مع كل خوف جديد يأتي من بعد، تحسس يوسف كفه كأنما يتذكر شيئًا ما فجأة، فلما وجدها تقبض على بذرته لا تزال، وأنها لم تقع من بين أصابعه رغم جريه المحموم، مرَّر عينيه في ظلام المكان كأنما ليلقي عليه نظرته الأخيرة، وعندما أصابته الرصاصة سقط دفعة واحدة، فقد كانت الرصاصة قريبة جدًا، وسريعة جدًا، مما أتاح لها قدرًا هائلًا من القوة، والقدرة على النفاذ، ورغم العتمة بدتْ وكأنها تعرف طريقها جيدا إلى قلبه، فثقبته تماما، وخرجتْ من الجهة الأخرى في سهولة ويُسر، حتى أن يوسف لم يشعر بشيء مرعب، أو قادر على زرع الخوف بداخله، بل حُرقة طفيفة على سطح الصدر في موضع الاختراق، ثم برودة شديدة وثقيلة ولاذعة بدأتْ في الخروج من الجهة الأخرى، آخذة معها القلب، وبعضًا من الدماء

التي تناثرتْ من ورائها كأنما لتودعها، أو تشكرها على زيارتها الخاطفة، غير المحسوسة.

سقط يوسف بصمت، فقد بدا الصمت له مثل حائط صد أخير يحمي به نفسه من وجع الرصاصة، ويَصُمُّ به أذنيه من صخبها المفرط في حقده وقوته، ثم بدا له الصمت أخيرا مثل درع واقٍ يرميه في وجوه الذين قذفوا رصاصتهم من المجهول المعتم من خلفه، كآخر دفاعاته التي يواجه بها اختباءهم من حوله، بعدما عجز دبيب أقدامهم الحذرة، وظلمة الحوش القديم المهجور، وتسللهم في الليل، وحقدهم الموغل في صدورهم، وأصواتهم المكتومة على الوعيد والسُباب ــ عن أن تزرع الخوف بداخله، وتدفعه إلى مزيد من الهرب.

ولماذا يخاف؟!

لقد كان فرحًا بعزلته حتى هذه اللحظة التي باغتته فيها قسوتهم، وكانت يداه خاليتين من أي سلاح يمكن أن يواجههم به، وربما ارتسمت على شفتيه ما يشبه الابتسامة الساخرة، وهو يتذكر لوهلة خاطفة أنه لا يُجيد استخدام المسدس من الأساس، ولا يعرف كيف تخرج الرصاصة منه، وعلى أية حال فقد كان المسدس سيحتل جزءا من تفكيره، وربما كان كفيلا بأن يزرع الخوف بداخله لا أكثر، أما الأهم من ذلك كله، فإنه ابتسم لنفسه كثيرا وهو يراها لا تريد شيئا منهم كي تقاتلهم عليه، وأنه لو قُدِّر له النظر إلى أعماق قلبه الآن ـ ولو من خلال الثقب العميق الذي أحدثته رصاصتهم به ـ لربما رأى محبته لهم،

لا تزال تجلس هناك في ركنها الأثير الثابت، وبعيدا جدا عن شلال الدم الذي صنعوه.

كنت أحاول جاهدة التعرف على نفسي، شعوري العميق بأنني على وشك الانفصال عن يوسف، وشعوري الأعمق بكل ما يحدث له، وكأنني أتصل به، أو أكمن فيه، وكيف يمكنني رؤية كل شيء من مكاني الداخلي هذا، غير أن ترنّح جسده العنيف والمباغت كرد فعل لقوة اصطدام الرصاصة به، شغلني، ولم يدع لي مجالا سوى أن أتابع ما يجري وكأن الخطر يلحق بي أيضًا، تطوّح يوسف للوراء دون أن تتحرك قدماه من مكانهما، ومع خروج الرصاصة من الجهة الأخرى بدا وكأن توازنه يعود إليه، فاستقام واقفا كما كان، وفيما راحت عيناه تجوسان كل أركان الحوش القديم المهجور، وتحاولان اختراق الظلام بحثا عن مصدر انطلاق الرصاصة، راح جسده يتلذذ بالبرودة المفاجئة التي احتلتْ الثقب بكامل تجويفه، وبدأتْ رحلة سريانها إلى داخله بتؤدة ويسر، غير أن ثقلًا شديدًا بدأ في التكون فجأة، وراحتْ وطأته تزيد من ثقلها كلما مرتْ البرودة بجزء من جسده، ولم يستطع يوسف أن يحدد إذا ما كان هذا الشيء الذي نبت بداخله بغتة، هو الذي يطارد البرودة، أم أن البرودة هي التي تخلفه من ورائها في رحلة انتقالها من مكان إلى آخر، لكن يوسف ظل يقاومه، وجاهد كثيرا لكي يظل جسده منتصبًا في وقوفه، حتى احتل الثقل نصفه العلوي تمامًا، فأحسّ بضغطه الجاثم، ولم تعد قدماه بقادرتين على حمله لأكثر من ذلك.

سقط يوسف على ركبتيه دفعة واحدة، ولعل ذلك ما جعله يشعر بذلك الألم المفرط الذي زلزل كيانه كله، وبغض النظر عن إحساسه بتهشم عظام الركبتين كنتيجة طبيعية لضغط نصفه العلوي على مفصليّ الحوض وعظام الفخذين، إلا أن إحساسه بتحطم الكيان الثلجي بداخله، وانفجاره الوشيك في نصفه العلوي، هو ما سبَّبَ الألم الأكبر، والأكثر من قدرته على الاحتمال، وبقدر ما ساعد على سرعة تدفق الدم مرة أخرى من خلال تقب الرصاصة العميق، والنافذ، والذي اضطره إلى وضع كفيه على مقدمته في محاولة بائسة وعقيمة للحد من تدفقه، بقدر ما دفع الدم إلى رأسه بقوة، حتى شعر يوسف أن رأسه يفور ذلك الفوران المكتوم على الغيظ، والذي يسبق الانفجار بوهلة وجيزة، فراحت عيناه تزوغان من فرط ألمه الحاد، وبدأ جسده يترنح في ركوعه الاضطراري على ركبتيه، حتى أنه فقد القدرة على الإحساس بأي ألم آخر من شأنه أن يأتي من بعد، وبدا له وقوع جسده وتمدده الكامل على الأرض ـ بلا إرادة ـ أمرًا محايدًا، يشاهده عن بُعد، من مكان بعيد وغائم وبلا هوية محددة، تماما مثلما أفعل أنا الآن.

وقع يوسف على وجهه، والدم الذي كان يسيل على ظهره وصدره بالتساوي، بدأ الآن في التجمع من تحته، وبدا يوسف عاجزًا عن كبح جماح تدفقه، أو ايقاف قدرته الجديدة على صنع تلك البركة اللزجة، التي تزحف ببطء وسخونة مثل بركان كاسح لتصبغ جسده من فوقها، وتفيض على جانبيه كأنما توفر مساحة مناسبة لبقية الدم الذي لا يكل عن التدفق، وكأنها

تمتلك قوة جاذبة وقادرة على سحبه من داخل الجسد حتى آخر قطرة، وهو ما حدث بالفعل، فقد كان يوسف يشعر بخروج الدم على هيئة ثقل مرعب، يملأ الأماكن التي يتركها الدم أولًا بأول، ومع خروج القطرة الأخيرة بدا جسده على قدر عظيم من الثقل، لم يعهده بنفسه من قبل، فقد عجز تمامًا عن تحريك جفنيه، وكان يرغب بقوة في إغماضهما بعدما عجز عن سد أنفه بأصابعه، لمقاومة رائحة الدم الثقيلة، ولزوجته التي تزكمه إلى حد الضيق والاختناق.

البرودة الآن تصيب جسد يوسف من أسفل، يشعر بها في قدميه، ويشعر بقدميه أكثر ثقلًا من الفراغ الذي كان يسببه انسحاب الدم، وأحس أن لها قدرة على الحركة مثل طيف ينسل بخفة من القدمين إلى الساقين إلى الفخذين، ثم يجتاح جِذعه حتى ينتهي عند الرأس، ومع كل اجتياح لعضو من جسده يترك فيه من خلفه سكونًا قاتلًا، وغبيًا، ولا يعرف طريقًا إلا إلى الموت، حتى استقر إلى جواري قريبًا من محيط الأنف، وبلا إرادة وجد نفسه يجلس باستعداد كامل، في انتظار يد ما تسحبه إلى الخارج، بدا طيف البرودة الخفيف يشبهني تمامًا، لكنه لا يرتاح إلى السكون الذي يلفني، لم تكن مراقبة الأمور ـ انتظارًا لما يمكن أن تُسفر عنه من أحداث ـ تعنيه في شيء، وكأن قدومه من المجهول إلى ههنا، ويقينه الثابت بمجيء اليد الملائكية القادرة على الخلاص، أمر لا مفر منه، بدا الطيف على عكس ما أنا فيه تمامًا، كأنه يعرف نفسه ومهمته، وسبب خروجه من البراح العظيم للجسد إلى ههنا، حيث الضيق

وانتظار المجهول، لم يأبه لوجودي أو مراقبتي له، لكنه أحاطني بنظرة محايدة كأنما ليطمئنني، وربما ارتسم على شفتيه ما يشبه الابتسامة قبل أن يبدأ في إعاقة دفقات الهواء الواهنة، التي كانت تدخل وتخرج من جسد يوسف بصعوبة بالغة، وكأنه يريد استكمال عمل الرصاصة، والوصول إلى الموت.

لقد كان طيفًا خفيفًا وحقيقيًا يسكن جسد يوسف، شعرَ به كما لم يشعر بي، وأحسه يستدير في مساحة الأنف كأنما ليلقي نظرته الأخيرة على الجسد الذي احتواه واحتمله طويلًا، ورغم قسوته البادية استطعتُ أن أرى دمعتين رقيقتين تقاومان القفز من عينيه، كأنه يتمنّى في لحظته الأخيرة هذه لو أنه كان ضيفًا خفيفًا، وعلى قدر براءة الجسد الذي سكنه لخمس وثلاثين سنة، ومع نزول الدمعتين وامتلاء ساحة الأنف بهما بدا الطيف وكأنه يُحدق إلى شيء ما في الخارج المجهول، شيء جلل وعظيم ومهول، وبالكاد يستبين معالمه من خلف سُحُب بيضاء داكنة تفرش ظلالها على المكان، وتضيق من نظرته إلى أقصى مدى، التف من خلفي مثل قوة لا طاقة لي بها، أو عملاق لا حد لطوله الفاره الذي سد ساحة الأنف كلها، فتوقفتْ دفقات الهواء في جسد يوسف، ثم استدار مرة أخرى ليقف في مواجهة فراغ عظيم وهائل، هناك عند طرفيّ الأنف البعيدين مثل امتداد داخلي لناي لا يكف عن بث الحزن، واللذين يُحدد استدارتهما الرقيقة قليل من الضوء الباهت الذي بدأ يشع بخوفٍ وسرعة في المكان، وعندما كانت زفرة هواء واهنة تستعد للخروج من جسد يوسف ترك الطيف نفسه لها، فاندفع

خارجًا من الجسد بتؤدة ويسر، لكنهما ممتلئان بالعزيمة والإصرار على الخروج، كأنه كان يعرف أنها زفرة يوسف الأخيرة التي ستشكل خروجه من جسده، وخروج يوسف الأبدي من الحياة، وبالفعل لم يستطع يوسف التنفس بعد ذلك، سقط رأسه في ثقل لا متناه، وتمدد خيط من الزبد الأبيض الداكن أمام إحدى فتحتيّ أنفه، فعرفتُ أنه الموت.

أما أنا فقد انقذفتُ خارجة مع الطيف، كانت انسيابية ما قد ربطتني به عندما التفَ من خلفي، فتسرّبتُ معه بهدوء غريب، لكن الأمر الذي بدا لي أكثر غرابة ووعورة ـ وبالكاد استطعت أن أتوافق معه ـ أنني شعرت وكأني أخرج من جسدي أيضًا، كأن الصلات المجهولة التي كانت تربطني بيوسف في الداخل قد عادت مرة أخرى، كأنني قد عشت معه عمره كله، أو أنني بشكلٍ ما صورة له أو منه، حتى وإن بدتْ منفصلة، أو محايدة، أو تنظر من بعيد، وتغلفها الحياة التي تركتْ يوسف طريح الأرض، وغارقا في الدم والظلام، وها أنا ذا بعد أن ذاب الطيف من حولي، وتلاشى سريعًا في الأعلى بمجرد خروجه من الجسد، وبعدما امتزج زفير يوسف الأخير في هواء الدنيا، وأصبح عاجزًا عن الرجوع إليه مرة أخرى، أجلس بأريحية مطلقة في ركنٍ فارغٍ ومظلم من أركان الحوش المهجور، تحديدًا على أعلى بقايا جدرانه الأربعة التي تهدمت بفعل الزمن والإهمال، أرقب يوسف ممددًا على الأرض، وغارقًا في بركة هائلة من دم له رائحة نافذة، أخذ هواء المكان يتشبّع بها حتى

الثمالة، وحتى أنني شعرت بأن كل الأشياء التي كُتِبَ لها الوجود الآن في الحوش القديم المهجور، تتطوّح من السُكر.

مرتْ فترة صمت طويلة ومملة، حملتْ ثقل المكان والليل والظلمة والدم الذي بدأ في التخثر، وامتلأتْ بالذهول ووحشة الهجر التي يعبق بها الحوش القديم، والترقب الذي بدأ ينسج خيوطه من حولي في انتظار أن يخرج إنسان ما، كائن ما؛ كي يتأكد أن رصاصته قد أصابت هدفها، وأن يوسف الآن منكفئ على وجهه في حضن الموت، ولا سبيل له مرة أخرى لعمل شيء ما يقدر على إخافته منه، أو يحول دون خروجه المنتظر هذا، لإشباع حقده الذي يتجسّد الآن موتًا حقيقيًا يرقد في الأرض، والفرح بالنصر، لكن أحدًا لم يخرج إلى الآن، حتى أنني غرقت في الشعور بالملل، فقررت النزول لاستطلاع الأمر، وما إن اتكأت بكفيّ على ثقل الحائط من تحتي، حتى فوجئت بنفسي أقفز في سرعة ولين، وأستوي على الأرض بهدوء شديد، أحاطتني الدهشة، وشملني ذهول غريب وحاد، فمنذ لحظة وجيزة كنت أستغرب قدرتي على الرؤية في الظلام، وقدرتي على الرؤية من داخل جسد يوسف من قبلها، وها أنا الآن أقفز مثل ريشة تمتلك إرادتها الكاملة، وراحت عيناي تنقبضان وتضيقان ما بين حاجبيهما، تنظران المجهول وتتساءلان بدهشة مفرطة، هل من الممكن أن تُكسبني هيئتي الجديدة تلك، مثل هذه المهارات؟!

بدوت كأني أتعرَّف على نفسي، ودخلني فضول ألحَّ عليّ للتأكد من الأمر، وعندما تركت نفسي له وجدتني أعاود القفز مرة أخرى إلى أعلى حائط السور بذات السهولة والسرعة، فرُحْتُ أكررها كثيرًا، ولم يخلُ يقيني من فرح صبياني باكتسابي لكل هذه المهارات الجديدة، حتى أن رغبة جامحة في الضحك العالي والصاخب والمجنون قد اجتاحتني، لولا أنني لاحظت جسد يوسف المسجّى على الأرض، وتذكرت أنني نزلت من فوق الجدار من أجله، وبسرعة اكتشفت أيضا أنني كائن مستقل، وأن باستطاعتي امتلاك زمام نفسي حسبما أريد وأقرر، فهدأتُ ودنوتُ منه، كان منكفئًا على وجهه لا يزال، يحوطه الليل بظلمته الكالحة وأصواته التي تزرع الرعب والخوف من أماكنها الموغلة في البُعد والمجهول، لكنني استطعت تمييز كل شيء من حوله بوضوحه الشديد، وتفاصيله الكاملة، هكذا تسنى لي أن ألاحظ نظافة ملابسي كلها في مقابل تلطخ ملابسه بالتراب والدم، رغم أننا نرتدي ذات القميص الأبيض، والبنطلون الجينز غامق الزرقة، والكوتشي الأسود، لكنني عندما لمست جسده بدا باردًا وصلدًا في جموده على الأرض، فيما كان جسدي ينبض بالدفء والشفافية، ويفور بالحياة والحركة، غير أن فرحتي بالملكات الجديدة التي أكتشفها في نفسي، لم تستطع أن تطغى على الحزن العميق الذي انتابني لرؤية الموت على هذه الحال التي تتجاوز الرثاء بكثير، يوسف ابن أكبر عائلات البلدة، ربيب شيخها الفضل، عشقُ كل امرأة اقتربتْ منه، ومحبةُ كل إنسان استطاعت روحه

أن ترى الجمال وهو يمر إلى جواره، يموت هكذا كلصٍ هاربٍ، مقتولًا في سكون الليل وتحت ثقل وطأته، ومرميًا فوق التراب والدم في حوش قديم وفقير ومهجور، وفي ظهره ثقب باتساع القلب، اغرورقتْ عيناي بالدموع، لكنني خشيت أن تقع على جسد يوسف، فيُضاف إلى موته عار جديد إذا رآها الناس من بعد، وحسبوا أنها دموعه التي استجدتْ العطف والرحمة قبل أن تفتك الرصاصة بالخوف الذي ملأ قلبه منها، تلفتُ حولي فكان السكون والوحشة لا يزالان يسيطران على المكان، لم يكن ثمة حركة، ولا حتى أثر لدبيب خائف ومترقب ومن المنتظر حدوثه، رغم ازدياد حاسة السمع عندي، والتي استطعت من خلالها أن ألتقط صوت الطائر الذي تثاءب على غصنه فوق فرع الشجرة الواقفة على البُعد، ثم عاد إلى نومه مرة أخرى، بدا الأمر وكأنما القاتل الذي بعث بيوسف إلى الموت قد ذهب معه أيضًا، فاعتليتُ جدار الحوش بوثبة واحدة، وفي الوثبة الثانية كنت أقف على حافة الترعة التي تبعد عن الحوش بمسافة طويلة، وهناك سكبتُ عينيّ على سطح مائها حتى امتلأتْ بدموعي.

لما ذهب عني الحزن أخذت ألملم نفسي مرة أخرى حتى تماسكت، وجعلت أنظر إلى سطح الماء في الترعة حتى تلاشتْ فيه آخر دائرة صنعتها دموعي وهي تتساقط من فوقه، وحتى بدا سطح الماء ساكنًا جدًا، وهادئًا جدًا، ينشع في برد الليل ويراح المكان برودة محببة، رحتُ أتنفسها بتلذذ وأنا أرى صورتي في سطح الماء تخرج من الاهتزاز حتى تثبتْ، فتتضح

معالمها جليَّة، وأرى الانتعاش يدخلني، ويُعيد إليّ حيويتي مرة أخرى، شعرت بارتياح غريب، ولسبب موغل في البُعد بداخلي أحسست بألفة شديدة لوجودي في المكان، وعندما امتدتْ عيناي في البُعد الموازي لحافة الترعة رأيت بيت يوسف الكبير، يقف هناك بعزة وكبرياء موغلين في الزمن، تحوطه الحدائق الخضراء، والشجر العالي الممتد إلى مسافة غير قصيرة حتى أطراف المعبد الفرعوني القديم، كأنهما يدان ممتدتان بالسلام والمحبة، فتذكرت أنني ما زلت أقف في أملاك عائلة يوسف، أن كل هذه المسافة المزروعة بموازاة الترعة، والتي تتعدّى حدودها الحوش القديم المهجور، وتبعد عن حد الترعة بمسافة مائتي متر تقريبا، هي أرض "الفضل" التي ورثها عن آبائه وأجداده، وورثها من بعده يوسف وأخوه الأكبر، شدني جمال البيت على البُعد، ورأيت بعينيّ الثاقبتين الآن طائرًا يأتي باتجاهي من الفضاء الواسع المجهول من خلفه، ينساب بهدوء وثقة وهو يطير فوق ماء الترعة، ويفرد جناحيه باتساعهما كأنما يتحدّى مجهولًا ما، لم أستطع الوصول إليه، وبلا شعور امتلأ داخلي بأمنية يوسف القديمة والدائمة، والتي ظلتْ معه حتى دخوله أرض الحوش المهجور، واحتضان قلبه للرصاصة المجهولة قبل قليل، وما إن تمنيت أن أطير مثله حتى اجتاح داخلي شعور عارم بالخِفَّة، أحسست أنني حرة بما يكفي، وأن الحياة ليست سوى مجموعة من القيود، بقدر وهنها وضعفها بقدر قدرتها على صناعة العجز وخلق السكون.

هكذا رأيتني أطير، وها أنا الآن على مسافة غير قصيرة فوق سطح الترعة، اتجه بموازاتها حتى ألتقي بالطائر الذي بدا مبتهجًا برؤيتي، كأنما استجبتُ لدعوة كامنه بأعماقه، أو كأنني رأيتُ للتو ذلك المجهول الذي كان يتحدّاه قبل قليل، فراح يصدر أصواتًا تشبه الموسيقى في عذوبتها، وانتظام أنغامها على إيقاع واحد، حتى صرنا نطير إلى جوار بعضنا البعض بحسب ما يقذفه الإيقاع بدواخلنا، متوازيين مرة، ومتواجهين مرة، وملتفين حول بعضنا في الهواء في رقصة مجنونة، لكنها في سلاستها وانسيابها ملائكية إلى حد بعيد، إلى حد أنني شعرتُ وكأني روح خالصة، لا يحدها المكان ولا الزمان، ومنفلتة تمامًا من قوانين الحياة، وفي انغماس روحينا في عذوبة الوقت رواحا ومجيئا من فوق البيت الكبير إلى الحوش القديم المهجور، بدأتْ أذناي تتسمّعان دبيب حركة خافتة، وحذرة إلى أقصى مدى، وعندما أصغيت السمع عرفت أنها تأتي من الأحراش التي تلتف حول الحوش المهجور كثعبان أسطوري جاثم، شعرت بانقباضه مباغتة وتعلقتْ عيناي باتجاه جسد يوسف المُلقى في أرض الحوش، درتُ حول نفسي دورات مرتعشة وخاطفة، وممتلئة بشعور غامض وسريع الخطى نحو خطب ما قادم، تركت الطائر الذي فهم الإشارة وولَّى جناحيه باتجاه المعبد الفرعوني القديم، ورحت أحلّق فوق أرض الحوش المهجور، حتى رسوت فوق جداره المتهدم، وجلست بهدوء مترقب في انتظار أن يسفر الخطب الذي يملأ داخلي عن نفسه، ومع ازدياد دبيب الحركة، وظهور أرجلها القاسية في تقدمها باتجاه جسد يوسف

في أرض الحوش، رأتْ عيناي ما تمنيتُ بعد ذلك كثيرًا لو أنني لم أره قط.

لم يكن دبيب الحركة لقدمين اثنتين فقط، بل ست أقدام كاملة وحيَّة ومنتصبة في وقوفها إلى جوار بعضها بين الأحراش، كأنها تعرف خطوها، وتستمد من معرفتها الثقة والمؤازرة والقسوة المفرطة، ست أقدام تنتصب من فوقها ست أرجل سوداء في ظلام الليل، بدتْ مثل أخشاب جامدة لخيالات حقل مخيفة وواقفة بعمد، تعلوها هالة مستطيلة من نور فاقع، ومن فوقها انتصبتْ ثلاثة رؤوس بشرية مدورة، بدتْ في انعكاس الضوء المتقدم للأمام سوداء وشبحية وغير واضحة المعالم، بدا جليًا أن الأصدقاء الثلاثة يمسكون كشافاتهم المحمولة، ويطلقون ضوءها باتجاه جسد يوسف المسجّى على وجهه في أرض الحوش القديم، بعدما دخلوه من فتحة الجدار التي هدمها الزمن، والتي كانت تحتوي الباب الرئيسي له بين جنبيها، وعندما تأكدوا من وجود جسد يوسف على الأرض بدأوا في توجيه أنوارهم في أرجاء الحوش كلها، مخافة أن يكون أحد ما قد كمن في اختباء مضاد لاختبائهم، لوهلة خفتُ أن يكشفني الضوء في أعينهم، لكنه عندما تناثر مع نظراتهم من حولي دونما أن يدركوني، عرفت أنني بعيدة جدًا عن مرمى رؤيتهم، ولما تأكدوا من وجودهم الوحيد في المكان راحوا يتحركون نحو جسد يوسف حتى تحلقوا من حوله، هكذا بدأ الضوء يصطدم برؤوسهم، فبدأتْ ملامحهم في الظهور، وهكذا وجدتُ الصلات التي كانت تربطني بيوسف يزداد وهجها بداخلي إلى

أقصى مدى له من الوضوح والشفافية، حتى أنني عرفتهم جميعًا، ولمستُ قربهم الشديد لي، وكأنني يوسف على هيئة ما، هيئة تبدو مغايرة بشكل حقيقي، لكنها حقيقية أيضا، وتمتلك يقين وجودها، وقدرتها على الحياة، وكانوا هكذا:

الأول أخي الأكبر، وغريمي في محبة أبي الفضل لي.

والثاني صديق طفولتي، وغريمي في محبة البنت التي لازمتنا في رحلة الكُتّاب والمدرسة، والذي رغم زواجه منها لم يؤمن أبدا أننا قد كبرنا.

والثالث رب عملي، وغريمي في محبة البنت التي تسعى بأكواب الشاي بين مكاتب المؤسسة، ووقعتْ محبتي في قلبها بلا ذنب مني.

وكان كل منهم يحمل نوره بإحدى يديه، فيما تقبض يده الأخرى على مسدس لا يزال مشرعًا على القتل، وفوهته ساخنة، عرفتُ ذلك من حركتهم الموحدة التي راح كل واحد منهم خلالها يُقَرِّب فوهة مسدسه من فمه، كأنما ليتأكد من سخونتها، ثم ينفخ فيها ليثبت للآخرين خروج رصاصته منها، غير أن هالة من الدهشة سرعان ما خَيَّمتْ فوق رؤوسهم، وفرشتْ ظلالها عليهم، لقد هالهم ـ عندما سلطوا أضواءهم على جسد يوسف المسجّى في الأرض ـ وجود ثقب واحد فقط في ظهره، وللخروج من وحل الحيرة التي أصابتهم تطوَّع أخي الأكبر ودفن قدمه تحت جسد يوسف، ثم قذفها للجهة المقابلة،

فانقلب الجسد ليتمدّد على ظهره، فبدا لهم جليًا أن صدره لا يحمل غير ذات الثقب أيضًا، لم يدركوا حجم الثقب، ولا عمقه الغائر وقدرته على النفاذ من الجهتين، ولا التفتوا إلى اتساعه الذي يقدر على احتواء رصاصاتهم جميعًا، فقط استسلموا لظل الدهشة فوق رؤوسهم، واستطابتْ عقولهم الوقوع في وحل الحيرة، وفيما كانت عينا يوسف مفتوحتين بجمود الموت في وجوههم، كانوا يتبادلون فيما بينهم نظرة صامتة وثقيلة ومحشوة بالدهشة والحذر والشك، وكأنهم يسألون بعضهم، أي منا أصابتْ رصاصته قلب يوسف؟!

أما أنا فقد هالني وجه يوسف عندما رأيته، شَدَّني الشبه الكبير الذي يربط بيني وبينه، حتى خُيِّل إليّ أنني أعاود النظر مرة أخرى إلى سطح الماء على حافة الترعة، لكنني عندما ثَبَّتُّ عينيّ في عينيه جيدًا، عرفتُ أنني روحه التي أفلتتْ ـ بحركتها المباغتة ـ من يد الكائن الخفيف الذي انقذف من أنفه، والتي أفلتها الملاك لسبب لم أستطع إدراكه، لكنه كان كفيلًا لكي أتحرر، ولكي ترتسم على وجه الملاك تلك الابتسامة رائقة الصفو، وهو يحلّق للأعلى.

أنا روح يوسف التي لم تقدر رصاصاتهم على أن ترسلني معه إلى الموت، وها أنا ذا الآن أجلسُ فوق رؤوسهم أعلى جدار الحوش المهجور كشاهد يقين، وتمتد عيناي الثاقبتان لتريا أبعد مما نمكث فيه جميعًا، لتشاهدا كل شيء بتفاصيله الكاملة

والدقيقة، ما ظهر منها، وما خفي عني في حياتي التي انتهتْ قبل قليل.

وحدي معهم

كدفقة موجة هادئة تُلقي بجسدها النعسان على شاطئ ليلِي باهت الإضاءة، انسابت قدماي على الطريق التي ستقذفني نهايتها إلى غرفتي الجديدة، أشعر أني خفيف، كأني أطير، أو محمول على أكتاف كثيرة تهرول بي ـ بلا سبب أو غاية ـ سوى الوصول إلى الغرفة بأقصى سرعة، كأني أريد اللحاق بموعد قد تأخرت عنه بالفعل، رغم أن الأمر ليس على هذا النحو أبدا، فقد حجزت غرفتي طواعية، وحددتُ موعد مجيئي إليها ليلا ـ عقب انتهاء حفل الزفاف ـ بإرادة كاملة، وكل ما كنت أصبو إليه، أن أعثر فيها على ذلك الهدوء الذي يقدر على انتشالي من البؤس الذي يُغرقني حتى أذنيّ، ويكاد يقتلني صمتا منذ الصباح، منذ بدأ ذلك الشعور المفاجئ بالانقباض يتسرب إلى روحي على مهل، وظل يتراكم بداخلها حتى ملأها تماما، وحتى أحسست أني أنسحب من كل شيء من حولي، كأنما روحي قد امتلأتْ عن آخرها بهواء ضخم، ولم يعد أمامها من سبيل سوى أن ترتفع به فوق كل الأشياء، هكذا تأكدتُ أنني لن

أستطيع احتمال وجودي وحيدا بالمنزل لأكثر من هذا، فأمسكتُ هاتفي المحمول واتصلت بالفندق.

لا أعرف لماذا خُيِّل إليَّ أنني أرى موظف الاستقبال وهو مشغول في مكان ما بعيدا عن الهاتف، لكنه انتبه تماما إلى الرنين بمجرد أن علتْ نغمته في المكان، بدا كأنه ينتظر بالفعل، فأقبل إليه ملهوفا ليجيبني، وعندما جاء طلبت منه أن يحجز غرفة باسمي لهذا اليوم، رأيته يبتسم كأن توقعا ما في ذهنه قد تم بالفعل، وقبل أن يرفع القلم من بطن السجل المفتوح أمامه ليدون بياناتي، صرختُ فيه فجأة:

ـ اِنْتظر.

صرختُ بحدة وحزم، ليس لأنني انتبهتُ إلى تصوراتي عنه، والتي كادت تستوقفني فعلا لتُشير إلى حجم الدهشة التي ارتسمتْ على وجهي من رؤيته وهو يبتسم، رغم كل هذا البُعد الذي يمتد بيننا، ورغم أنني لا أعرفه من الأساس، بل لأنني تذكرتُ فجأة موعد الحفل وأنا أحدثه، ورأيتُ أنه سيكون من الصعب عليّ قطع هذه المسافة الطويلة ـ من هنا إلى الفندق ـ لثلاث مرات في يوم واحد، ذهابا إليه، ثم عودة إلى حفل الزفاف، ثم ذهابا إليه مرة أخرى، وأنه سيكون قاسيا أكثر على ابنتي عدم حضوري لحفل زفافها، فرغم كل هذا الخواء الذي أفضى بي ـ طوال العام الماضي كله ـ إلى الفتور، والوحدة، والشعور البالغ بلا جدوى وجودي بينهم، وربما لا جدوى وجودي كله، تظل ابنتي طاقة النور الوحيدة التي كافأتني بها

الحياة، وتظل زوجتي وأهلي وأصدقائي وزملائي، وكل منْ التقيت بهم على طول حياتي، بلا ذنب مباشر في ذلك، بلا ذنب في إحساسي العميق بأن جزءا ما من روحي قد سقط فجأة في مطلع الشباب، ولا أزال أفشل في العثور عليه حتى الآن، ترددتُ قليلا، لكنني وجدت نفسي دون تفكير تقريبا، أطلب من موظف استقبال الفندق تأكيد حجز الغرفة، رغم تأكدي التام أني لن أحضر إليها إلا ليلا بعد انتهاء الحفل، هز الموظف رأسه وابتسم هذه المرة بود، بدا لي كأنه يرى كل ما يدور في عقلي أيضا، ويعلم قراري فيه بشكل مسبق، لكنني رحت أجيب على تساؤلاته بطواعية، كأني مسلوب الإرادة، فبدأ في تدوين البيانات.

لو أنني في قبر ربما لم أكن لأشعر بثقل مرور الوقت هكذا، انتبهتُ من حديثي مع موظف الاستقبال على فراغ وصمت كاملين يملآن كل أركان المنزل، اندهشت قليلا، لكنني سرعان ما بدأتُ في وضع فرضيات تبعث على طمأنة داخلي من القلق الذي يموج فيه، فبغض النظر عن عدم وجود إجابة محددة للسؤال الذي راح يتراقص أمام عينيّ، كيف استيقظتا، وخرجتا من المنزل دون أن أشعر؟! بدا من الطبيعي أن تقضي العروس يوم زفافها كله في محل الكوافير، وأن تقضي أمها اليوم نفسه في الجري إلى كل الأماكن التي تكمن فيها احتياجات هذا اليوم، وأن تحرص ـ كأم للعروس ـ على سد كل الثغرات الممكنة، ولو بدتْ مجرد احتمال من المستحيل أن يحدث، لكن الدهشة التي ارتمستْ على وجهي أصرتْ على

البقاء، كأنما لتنبهني إلى شيء آخر، وبعد برهة قصيرة اكتشفتُ أنني لا أعلم على وجه التحديد، كيف استقر بي الوجود هنا على أريكة الصالة الكبيرة؟! لا أعلم إذا كنت قد استيقظت من النوم مثل كل صباح، أم أنني أتيت من الخارج بعد قضاء الليل كله في مكان ما، لا تتضح معالمه في ذهني بشكل واضح، لكنها لا تكف عن التلويح لي من بعيد، ولا أكف عن النظر إليها كسكران يرى كل شيء من خلف غمامة بيضاء رقراقة، لا تُفسح مجالا للشك، لكنها أيضا لا تُتيح الحقيقة.

ظللتُ تحت براثن الدهشة حتى انتبهت إلى البيجامة البيضاء التي أرتديها، ورغم أنها لم تكن تخصني، أو على الأقل لا أذكر الآن متى اشتريتها على وجه الدقة، إلا أنني ارتحت لوجودي فيها بالمنزل، وكأنني قد استيقظت فيه، هكذا ارتميت بجسدي كله على الأريكة الكبيرة، وشغلت نفسي بمتابعة الصور التي تتلاحق من وراء بعضها في شاشة التليفزيون، حتى سمعت صوت احتكاك المفتاح وهو يلج بلهفة في باب الشقة من الخارج، فانتبهتُ على زوجتي وهي تدخل بانشغالها الدائم بكل ما يدور حولها في الحياة، ومن خلفها بدتْ ابنتي ترفل في التعب.

كانتا تحملان الكثير من الأكياس، وكانت الأكياس تحتوي على آخر احتياجات الابنة كعروس، قبل أن ترتحل الليلة إلى بيتها الجديد، وكنت أتصنع الغضب من اهمالهما الكامل لي، كأنني غير موجود، فالتزمت الصمت، وظللتُ أتابع الصور المتلاحقة

وكأنهما غير موجودتين أيضا، لكن هالني أنني أرى كل محتويات الأكياس من الداخل، وكأنها تكشف لي عن نفسها، وعندما ارتمتا منهكتين على الأريكة المقابلة، رأيت زوجتي وهي تطوِّح بالتعب إلى أقصى مدى، وتعصر عقلها عن آخره كي تتذكر أنها لم تنسَ شيئا من احتياجات ابنتها على الإطلاق، فلطالما آمنتْ على مدار حياتها كلها، أن نقصان شيء واحد فقط من أي أمر ـ مهما بدا صغيرا وتافها ـ يكفي لإفساد الأمر عن آخره، وعندما فشلتْ هتفتْ كأنما تصرخ:

ـ تذكري معي، هل نسينا شيئا؟!

كانت البنت تغوص في طراوة الأريكة، والتعب الذي يتمدد منسلا من جسدها كله، يأخذها باتجاه السقوط إلى براح النوم، لكنها انتبهتْ بغتة على صراخ الأم، فاعتدلتْ في جلستها وكأنها تنقذف من فوهة بركان يفور بثورة مفاجئة، هزتْ رأسها كأنما تستعيد تذكر السؤال، وبالفعل سمعتها وهي تُعيد ترديده على نفسها مرة أخرى، تماما كما نطقتْ به الأم، غير أنها رددته بصوت منخفض، وحرص شديد على الامساك بكل كلمة فيه، حتى أنا انتبهتْ لصراخها المفاجئ، لكنني أزحتُ الغضب جانبا واعتدلتُ في جلستي، فصرنا نحن الثلاثة نجلس على الأرائك بانتباه كامل، وكأننا نتحفز لأمر ما، نظرتُ إلى زوجتي بلوم، وكدت أنطق ببعض الكلمات التي تعبر عن انزعاجي من تصرفها، وربما ببعض الغضب أيضا، وقد ظل إلى جواري باستعداد كامل للمؤازرة، والزحف إلى داخلي مرة أخرى متى

احتجتُ إليه، لكنني اتكأتُ على حافة الانتظار عندما رأيتُ ابنتي تلتحف بكل هذا الحرص، الذي يشبه الخوف إلى حد بعيد، وتنطق قبلي كأنما تخطف الغضب من فوق شفتيّ لترضيني بالصمت، نطقتْ بهدوء:

ـ لا، لم ننسَ شيئا على الإطلاق، حتى أشياؤه الصغيرة وضعناها في أماكنها كاملة.

أعرف أن الخوف قد يُلجئنا أحيانا إلى الهدوء، لنحمي أنفسنا من الانهيار، لكنني لم أعرف من أين أتت بكل هذا اليقين المفاجئ، الذي رمى بزوجتي إلى بركان من الصمت، وقتل الكلمات على شفتيها، لقد رأيتُ داخلها يثور كأن موجات من الصراخ، والغضب العارم، كانت تستعد للانطلاق بعد صرختها السابقة، لكنها ماتت جميعا في مواجهة اليقين الواثق الذي نطقتْ به ابنتي، فظلت شفتاها منطبقتين على جثث لا حصر لها من الكلمات الميتة، التي تتوق إلى الخروج ولا تقدر، ربما ظَنَّتْ أن البنت لن ترد عليها، أنها لا تزال على عهدها القديم معها، عجينة لينة، مفطورة على الصمت، وقابلة دوما للتشكيل الذي تراه مناسبا لها، فصدمها الرد، وزلزلها الهدوء، غمغمتْ كثيرا وهي تحاول دفن الكلمات التي ماتت بداخلها، ووأد الغضب الذي لا يريد أن يموت، فخرجتْ غمغمتها صراخا مشابها لصرختها الأولى، وإن بدت قليلة الحيلة، وعاجزة عن الرد، لكنها مستجيرة في ذات الوقت بجنون عظيم، حاولتْ به قتل خيوط الصمت التي التفتْ من حولها كلجام محكم، حتى أفلحتْ في

اخراج جملتها البلهاء المعتادة، التي تقذفها دائما وهي تحيط رأسها بكفيها، كأنما تستحي من رؤية ضعفها وهو يسقط منها كفضلات متحجرة، ليلمع في عيون الآخرين بريقا من الشماتة والفرح، وربما القدرة على رد الصاع المقابل أيضا، أو تخاف أن يصيبها البله بعدما استطاعتْ أن تتخلص منه:

ـ سأصاب بالجنون من أفعالك.

وأنقذها الوقوف المفاجئ، فهربتْ إلى غرفتها.

من أين أتى كل هذا الهول الذي يُحيطني الآن؟!

ألجمني ذهول الكشف إلى صمت مضاعف، كيف لم يتسنَ لي من قبل، أن أرى زوجتي بكل هذا الضعف؟! كان ثمة أشياء كثيرة ستتغير إلى ما هو أفضل حالا مما جرت عليه الأمور، على الأقل خلال العام الفائت الذي تغيرتُ فيه تماما، وأفشلُ حتى الآن في التعرف على هويتي الجديدة، لكنني انتبهتُ على جسدي وهو يرتخي بأريحية كاملة، ليتمدد على ظهر الأريكة مرة أخرى، وفيما كانت بسمة ما تشق طريقها إلى شفتيّ، وقدماي تستطيلان للأمام فرحا، وتعلوان عن الأرض، رأيت ابنتي وهي تغوص في أريكتها بذات الفرح، وتنتشي بذات الحال التي تُضيء وجهها بالقوة والنور، غير أنها سبقتني وأفلحتْ في اصطياد البسمة التي تتفتتْ ذكراها الآن بداخلها، كنبع لن ينضب أبدا بعد الآن، رأيتها تغمض عينيها وتنتشي للمسه يده، والولد الذي يرفل في فتوة الشباب يسحبها بهدوء،

لينجيها من برك المياه التي انتشرتْ في وجه الشارع، من مهبط قدميها أسفل السيارة وحتى باب الكازينو، بدتْ أصابعه كأنما تحمل سحرا ما، ارتعش له جسمها على بُعد الذراعين بينهما، وسرتْ به عيناها من نظرتهما المترددة إلى كفه المفتوحة على النداء، إلى نظرتهما المطمئنة على ذراعه التي نفرتْ عروقها نحوها لتنبض بالود، حتى تعلقتا أخيرا بعينيه، وسكنتا في الضوء الآمن الذي يخرج منهما، لقد رأتْ عينيه كأنما مغارة منيرة في بطن جبل، ولا سبيل للهروب من ظلامه الحالك، ووحدته الموحشة والمعجونة بوشيش الصمت، إلا باللجوء إليه، أغمضتْ عينيها ووقفت على الأحجار، وجعلت تستمتع لهمس ارشاداته كأن موسيقى عذبة تزفهما إلى الجنة، وهناك على باب الكازينو ـ عندما أراد أن يترك كفها ـ كانت قد وصلتْ إلى اليقين الكامل، بأن الفراغ الذي تركته بداخلها على مدار العام الفائت كله، لن يملأه رجل آخر غيره، فتمسكتْ بكفه، أحكمتْ قبضتها عليها جيدا، حتى أتتها بسمته الفرحانة، فأدخلتْ أصابعها في أصابعه، ولم يُباليا أبدا برعشة الاشتباك التي انتابتْ جسميهما، وهما يقتحمان باب الكازينو معا.

ابنتي الآن على الأريكة، تغوص في نوم هادئ، كأنها عثرتْ على ضالتها.

غير أن حالها أيقظني، ليس فقط لأندهش من حجم الرؤية التي تبدو وكأنها تأتيني طواعية، أو كأن الحُجب تتكشف عن انغلاقها المبهم مع كل خطوة لي منذ الصباح، بل لأموت دهشة

من مباغتة السؤال الذي راح يتراقص فجأة أمام عينيّ كثعبان، وأرى نفسي عاجزا في مواجهته بلا إجابة، وخائفا إلى حد الوقوف على شَفَى الموت المحقق، من أن يبخ سمه في وجهي:

ـ أين كنتُ طوال العام الفائت، كي تشعر ابنتي بكل هذا الفراغ؟!

سقط سم الثعبان على جبهتي تماما، تكوم فيها كسحابة مثقلة بحِملها، وسرعان ما بدأتْ في التخلص منه، وكلما سقط خيط من مطر السم على عينيّ، تجسدتْ أمامهما صور بلا حصر، لي ولزوجتي، ولكأس مغمورة بالخمر، وسحابة ضبابية معلقة، وحبل سري يربط عينيّ بفضاء واسع، وغرفة مغلقة على العتمة، وقدميّ رجل تجريان باتجاه الحمّام، وسرير ما، لا يشبه سرير غرفة نومنا في شيء، بدتْ الصور غير مرتبة في تعاقبها السريع، فاجتهدتُ وأنا أحاول إعادة ترتيبها من جديد، اجتهدتُ كثيرا لأكوِّن منها حدثا واحدا لعله يُنبئني بشيء، دون جدوى، لكنها بدت مثل طاقة خفية تنمو بداخلي، وتدفعني للذهاب خلف زوجتي، واقتحام غرفة النوم عليها، كأن سرا ما يكمن معها هناك، ومن المستحيل أن ترتاح روحي قبل أن أصل إليه.

كان الباب موصدا على الغموض لكنني دخلتُ، واتكأ ظهري على انغلاقه المحكم بحذر، فبدأ الوشيش الهامس ـ الذي كان يضرب أذنيّ في الخارج بكلمات مبهمة ـ يعلو وتتضح معالمه، وعندما لاحقته عيناي رأيت زوجتي ممده على السرير،

وضحكتها المكتومة على الهمس الواثق تقتحم الهاتف المحمول على أذنها، لتصل إلى فضاء آخر بعيد، بعيد ومغبش بضباب دخاني معتم، فلم تستطع عيناي الوصول إلى تحديد ملامح الرجل الذي يكمن بداخله، لكنني رأيته وهو يطمئن أيضا، ويضع ضحكتها على قلبه كآخر شيء يصله منها إلى الآن، ثم يبتسم كمن يصل إلى ضالته أخيرا، أغلقتْ زوجتي الهاتف ووضعته ببطء على السرير، ربتتْ عليه كمن تُهدهد على فكرة ما بداخلها بعدما اطمأنتْ إليها، ثم نهضتْ ببطء، لتقف في مواجهة نفسها وهي تطل عليها من المرآة الرفيعة التي ترتفع بطول الدولاب، وبدا جليا ـ من ثباتها المفرط في مواجهتها ـ أنها كانت تتحدى شيئا ما لا أراه، قبل أن تنزع عنها ملابسها بقوة وحزم، وتقرر الذهاب إلى الحمام، وعندما كانت تمر بموازاة باب الغرفة توقفتْ فجأة ونظرتْ نحوي، خلتُ أنها ستفسر لي ما رأيتُ من تلقاء نفسها، أو أنها ستثور في وجهي كعادتها لأنني لا أبادرها بالسؤال عن أي شيء ـ مهما بدا مبهما ويحتاج إلى تفسير ـ غير أنها بدتْ وكأنها لا تراني من الأساس، بدتْ كأنها شعرتْ فقط بشيء ما يحدث، أو يتحرك، في هذا المكان تحديدا، وعندما لم تجده هزَّتْ رأسها بلا مبالاة، وأكملتْ طريقها إلى الحمام بهدوء.

لطالما كنتُ في نظر زوجتي ذلك الكائن الذي التقطته من التيه لتصنع منه رجلا يناسبها، ومع ذلك أزعجني عدم اهتمامها بوجودي إلى هذه الدرجة، وكانت رغبتي في اكتشاف السر قد ملأتْ داخلي كله، فدفعتني دفعا إلى تفتيش كل شيء في

الغرفة، الهاتف، ملابسها الملقاة على الأرض، الدولاب، الأدراج، حقيبة يدها، حتى أكياس الفرح لم تسلم من عبث أصابعي فيها، كنتُ كمجنون يجري خلف أي دليل يثبت جنونه، ويُفجره في ذات اللحظة، غير أن كل الأشياء كانت مغلقة على أسرارها في وجهي، فجلستُ على الأرض بهدوئي المعتاد، ووضعتُ رأسي بين ركبتيّ، كنت أستجدي شيئا ما لا أعرف كنهه، ولا أجد سبيلا للوصول إليه، فلم أنتبه لخروجها من الحمام، أو إغفاءتها القليلة قبل أن تنهض وتتناول مع ابنتي آخر وجبة غداء لها في المنزل، لم أنتبه حتى لمرور الوقت الذي طوى كل شيء بداخله في طرفة عين، حتى بدأت موسيقى العرس تدق طبولها في الخارج، وتقذفها إلى رأسي.

تَحَلَّتْ حديقة المنزل بزينة الفرح، فبدتْ مختلفة تماما عن العشرين عاما التي قضيتها فيها، بريق الأضواء المختلفة في اختلاطها المتسارع، المناضد والكراسي التي شُدَّتْ بأقمشة الحرير اللامع، الكؤوس التي تتراقص في الصواني فوق أذرع الخدم، منصة العُرس التي تومض بزركشتها وأضوائها خلف الموسيقى الصاخبة، كأنما برق يزعق في سماء بلا حدود، كل شيء من حولي أخذ بعينيّ نحوه فلم أنتبه كيف أتيتُ؟! كيف استندتُ فجأة بكتفي على جذع الشجرة التي تقف في المؤخرة، وتكشف الحديقة كلها أمام عينيّ؟! كيف ارتديتُ تلك البدلة البيضاء التي تومض على جسدي؟! منْ ألبسني إذن، وهل تخصني أم لا؟! وعندما وجدتُ ابنتي تجلس في منصة العرس إلى جوار ذات الشاب الذي رأيته يمسك بكفها أمام باب

الكازينو، انتبهتُ على سؤال مباغت، أكثر حيرة ولم أجد له إجابة بداخلي، كيف استطاعتْ ابنتي أن تجد كل هذا الضوء الآمن، في هذا المنزل الذي ضلتْ روحي فيه لعمر كامل؟! انتبهتُ وكانت زوجتي تخطو بقسوتها المعتادة بين الحضور، ولا تأتي نحو الشجرة أبدا.

لم أعرف كمٌّ الوقت الذي مرَّ عليّ وأنا أراقب الأشياء من حولي، لكنني شعرتُ بطوله، كما شعرتُ بحلاوة المراقبة في روحي، كأنني لا أستطيع فعل أي شيء آخر غيرها، حتى بدأتْ ابنتي وعريسها في الوقوف، فأبعدتً كتفي عن جذع الشجرة، واعتدلتُ في وقفتي، وعندما غادرا منصة العُرس إلى الصحن الضوئي الذي فُرِّشَ لهما خصيصا في أرض الحديقة ليرقصا عليه، شعرتُ بأن وقوفي قد طال إلى الحد الذي لا لزوم له، وأن عليّ الآن أن أخطو باتجاه المباركة لهما، وكأنها اللحظة الحاسمة لي، خصوصا بعدما شدَّا أنظار الجميع إليهما، وراحوا يصفقون ويغنون لهما، خطوتُ بحذر من شدة الزحام، رغم أن أحدا من الذين اصطدمتُ بهم مرغما لم يتأفف من ذلك، وكثير منهم لم يلتفت إليّ من الأساس، حتى تجاوزتُ الدائرة الملائكية للفتية والفتيات اللاتي تحلقن الصحن الضوئي بملابسهن المتوهجة بكل الألوان تقريبا، ووقفتُ إلى جوار ابنتي وعريسها، كانا منهمكين في الرقص، في اشتباك عيونهما على نهم ينتظر التهام وليمته على جمر مشتعل بالرغبة، فلم ينتبها إلى وجودي، لم ينتبها حتى بعدما مرَّ وقت طويل، وحتى ظننتُ أنني قد ذُبتُ ببدلتي البيضاء اللامعة في ضوء الصحن،

وأنه لا وجود لي بينهما من الأساس، لكنهما بَدَيا فرحين مثلي، وفي صخب الفرح ـ الذي شمل كل شيء من حولي ـ آثرت أن أقاوم رغبة احتضاني لابنتي، ومباركتي لها، حتى انتهاء الرقصة، غير أن الرقصة بدتْ وكأنها لا تريد أن تنتهي، ووسط كل هذا الصخب الذي راح يتمثل الجنون في عشوائيته العابثة، لم أعرف كيف انتبهتُ إلى زوجتي وهي تجلس إلى جوار رجل ما على إحدى المناضد؟! ولا كيف سكتتْ كل الأصوات في أذنيّ فجأة، وانزاح كل شيء بيني وبينهما، لتتوقف عيناي عليهما فقط؟!

كانا يضحكان كأنما يعرفان بعضهما منذ أمد، وينظران إلى بعضهما كأن سرا ما يمتد بين عيونهما التي ترقب كل شيء يدور بينهما على المنضدة، حتى أنهى الرجل الكأس الطويلة التي في يده، ووضعها بهدوء وخبث بين يديها المبسوطتين على سطح المنضدة الحريري الأملس، فابتسمتْ بغتة كأن صفعة مدوية قد هزَّتْ روحها، وأزاحتها بعنف لتستند إلى ظهر الكرسي، وفيما كانت عيناها تزوغان في الفراغ الذي يعلوها كأنما تبحث عن مهرب ما، أو تتمنى أن شيئا ما ـ يهرول في المجيء إليها ـ لا يأتي، راح الرجل يحرك الكأس رواحا ومجيئا بين يديها على امتداد طولهما فوق المنضدة، مرَّتْ بينهما لحظة صمت مبهم، تشبه الاستسلام من زوجتي والإصرار من الرجل، حتى سقطتْ عيناها بذات البغتة على الكأس وهي تضمها بين يديها بقوة وحزم، كأنها قبضتْ على ذلك الشيء المبهم الذي يهرول باتجاهها، انزعج الرجل كمن تلقَى صفعة مدوية مقابلة، وتراجع إلى الوراء مأخوذا حتى ابتسمتْ زوجتي بمكر أعرفه

في عينيها، وسحبتْ يديها بهدوء من حول الكأس لتخبئهما في حجرها، قبل أن يعودا لتبادل الابتسام الممتد على حبل السر الذي يربط بينهما، وبقوما من المكان.

كيف انسلا فجأة بعيدا عن عينيّ؟!

ربما في اللحظة التي عاد فيها صخب العرس ليدوي من حولي مرة أخرى، ورجعتْ فيها كل الأشياء إلى أماكنها لتحجب عني الرؤية بلا سبب واضح، اللحظة التي أجبرتني على إغماض عينيّ، وأتاحتْ للصور غير المرتبة أن تتجسد أمامهما من جديد، وتوقظ بداخلي الطاقة الخفية التي تُسيرني خلف اكتشاف السر، وراحة الروح، لقد أغمضتُ عينيّ للحظة واهنة، كأني أعيد محاولة الترتيب الفاشلة من جديد، وعندما فتحتهما مرة أخرى لم أجدهما إلى جوار المنضدة، ولا حولها، ولا في كل أماكن الحديقة التي تناثرتْ فيها أضواء العُرس، وزحمته الصاخبة، لكن شيئا ما خفيا راح يُسيرني بلا إرادة نحو الغرفة القديمة، التي ترتكن وحيدة ـ كعجوز هجرها كل شيء ـ بآخر حديقة المنزل.

بدتْ الغرفة معتمة كذاكرة مغلقة على كل الأسرار، ويقف على بابها واحد من الخدم الذين كانوا يقدمون الكؤوس في ساحة العرس، يقف بحذر وترقب شديدين، ومع ذلك لم ينتبه لتقدمي نحوه، إنه حتى لم يشعر بمروري إلى جواره، قبل أن أفتح الباب وأدخل الغرفة، رغم أنني وقفت في مواجهة عينيه تماما، حتى شعرتُ بأنني هواء، أو شبح يأتي من أزمان موغلة في

البُعد، فمن المستحيل أن يبلغ تجاهلهم لي جميعا هذا الحد من عدم الرؤية، أو مجرد الإحساس بالوجود على أقل تقدير، فهل أصبحتُ حقا كائنا غير مرئي؟! ملأ الغيظ كياني كله، فرددتُ الباب من خلفي غير عابئ به أيضا، لكنني عندما فتحتُ عينيّ في مواجهة فضاء الغرفة، دخلني اطمئنان شديد بأن أحدا من الذين يقبعون في الداخل لن يشعر بي، وكأن الجميع قد تواطأوا فجأة لكي أرى كل شيء، وأكتشف كل شيء، بهدوء وبحقيقته الكاملة، هكذا رأيت الرجل يتطوح كسكران في فراغ الغرفة، ورأيت زوجتي تدفعه بكل قسوتها حتى ارتمى ممددا على السرير، بدا منهك القوى، لكنه قبل أن يُغمض عينيه لآخر مرة، نظر إلى زوجتي بما يشبه الندم، أو الحسرة، أو عدم القدرة على تصديق وقوعه في فخ، صنعه من قبل لآلاف المرات، ولم يؤمن أبدا باحتمالية وقوعه فيه، ونطق بوهن:

ـ نفس الكأس التي سقيتها لزوجك قبل عام؟!

ـ نعم، بنفس المذاق، ونفس كمية المخدر.

وقبل أن تتساقط السُحب البيضاء لتملأ عينيه، وتسحبهما إلى أعلى، كان حبل رفيع من الموت يتدلى من السقف، ويجز رقبته تماما.

هالني تناثر الدم في فضاء الغرفة، بدا مثل شرارات قوية وسريعة وملتهبة من النار، تنقذف من عمود حديدي يتمدد باستسلام كامل تحت سقوط المنشار الكهربائي من فوقه، ولا

تكف عن التدفق، وهالني أكثر هدوء زوجتي، وقسوتها المفرطة في الإمساك بطرفي الحبل الرفيع، وشدِّهما بكل ثقة وحزم حول رقبة الرجل، كأنها تنتقم ليقين ما، لم توخز روحها حشرجاته المتتالية من الخنق، أو وهن مقاومته من المخدر، ولم تلتفت عيناها إلى اتساع عينيه عن آخرهما وهما تذهبان إلى الموت، ويكسوهما بياض لامع، ولا اقشعر جسدها من تحول لونه إلى الأزرق الغامق، حتى انفصل رأسه وسقط على الأرض، ولسبب ما أحسستُ بألم شديد وقاسٍ في رقبتي، كأن نارا حامية تخترقها لترسلها إلى الموت، وبلا إرادة وجدتني أقبض على رقبتي بكفيّ من شدة الألم، ووجدتُ جسدي يهتز ويترنح بجنون عظيم في وقوفه، وسحابتان من البياض الناصع تغشيان عينيّ تماما، قبل أن أسقط في الأرض، ولا أدري بشيء من حولي، إنني حتى لم أشعر كم مرَّ عليّ من الوقت قبل أن أفتح عينيّ مرة أخرى، وأرى زوجتي تقف إلى جوار الخادم عند طرف السرير، وتهمس في أذنه بذات الهدوء والثقة الذين تركتها عليهما:

ـ لا أحد يساومني عن نفسي.

هز الخادم رأسه من أعلى إلى أسفل عدة مرات وببطء، كأنه يؤكد كلامها، أو يؤكد استيعابه الكامل له، بكامل تلميحاته التي توارتْ خلف هدوئها، وثقتها، وقسوتها البادية في عينيه، وهو يطوفهما على بقع الدم التي لطختْ أرجاء الغرفة عن آخرها، قبل أن ينظر إلى رأس الرجل الملقى أسفل السرير، إلى جوار

قدميه تماما، فتتوقف عيناه عن الحركة، وعندما أحس بعينيّ زوجتي تجاورانه في النظر إلى رأس الرجل ركله بقوة، فتدحرج الرأس حتى توارى أسفل السرير، ولم يبق له من أثر سوى خيط الدم الذي انسال منه أسفل قدميه، وامتد ليتوارى معه في الظلام، بعدها همس الخادم بثقة:

ـ من المستحيل أن أجعل أحدا ما يركل رأسي هكذا.

ابتسمت زوجتي كأنما تأكدتْ من وصول رسالتها إليه، وقبل أن تستدير للذهاب إلى الحمام ـ لتنظيف جسدها من الدم ـ ألقتْ في الهواء مظروفا مغلقا على مال كثير، وظلت عيناها محدقتين بعينيّ الخادم كأنما ترقبان ردَّ فعله الملهوف، حتى التقطه بمهارة، وعندما ابتسم فرحا وضعتْ على جبينه قبلة عميقه، وكأم مشبعة بالحنان همستْ بفرح:

ـ نظف جيدا، فأنا لا أحب روائح الدم الذي يسيل في هذه الغرفة.

وراحتْ عيناها تطوفان فضاء الغرفة، وأنفها يتشمم هواءها بعمد وقوة، حتى ظننتُ أنها تراني، فأصابتني رجفة مفاجئة، ظلتْ تسري من قدميّ إلى روحي، ولم تهدأ إلا وأنا أراها تمشي بخطوات راقصة، وخفة طائر يفرح بامتداد جناحيه في الفضاء الواسع، وهي تُصَفِّر بأنغام أغنيتها المفضلة، إلى أن صفعتْ باب الحمام بقوة قبل أن تتوارى بداخله، انتفض الخادم وكأنه يُلقي بالخوف من داخله، وابتلع الكثير من الهلع مع لعابه

الذي بدا وكأنه يمتصه بصعوبة شديدة، غير أنه كان قد هدأ تماما قبل أن يشرع في أعمال التنظيف، والتخلص من الجثة.

بدوت منهكا إلى أقصى مدى، ونهضتُ كأنني أعود من الموت، كان ثمة دوار لا يزال يدوي في مؤخرة رأسي، واختلط في عينيّ سقوط الماء على جسد زوجتي بالحمام، مع يد الخادم التي تنحت الأرض المبللة بالفرشاة السميكة، فيتفتت الدم تحتها، ويذوب في الماء، حتى يختفي، ترنحتُ في وقفتي، وبلا جدوى حاولتْ يداي الاستناد على أي شيء من حولي، الحائط، الدولاب، مقدمة السرير، باب الغرفة، لكنني كنت أدخل فيهم بشفافية ويُسر، حتى أدركت حقيقة أنني شبح، واستغربتُ كثيرا كيف أن قدميّ لا تقدران على حمل روح شفافة، بلا جسد وبلا وزن، وسألتُ نفسي كثيرا أيضا وأنا أترك الغرفة من خلفي، كيف استحققتُ أن أموت هكذا؟! ما الذنب الذي يمكن أن يقابله كل هذا العنف الممتلئ بالحقد والكراهية، كي يمحو خطيئته، أو يغفر له؟! أو يرميه في بئر الموت حتى حد النسيان، وهل أنا ميت حقا؟! أم نائم يجوب أركان كابوس لا انتهاء لقبضته الجاثمة؟! أم أنني حقا تلك الروح، أو ذلك الجِنّي، أو حتى الشبح الذي يرقب كل شيء من بعيد، وعلى مسافة محايدة، من الممكن أن تتيح له الوصول إلى الحقيقة؟!

وعندما كانت قدماي تثبتان في سيرهما على أرض الحديقة، وتتجهان بعزم للخروج من الباب الرئيسي للمنزل، لم أكن أهتم بمعرفة نفسي، لكنني أيقنتُ تماما أن المراقبة لن تعني إدراك

الحقيقة أبدا، وإن أدركنا الحظ لنكون من المصطفين، فلن نُدرك منها سوى جزء صغير فقط، الجزء الذي يخصنا نحن، جزء صغير وممتلئ بالكثير من الأسئلة والألم، فساعتها سنُدرك أننا كنا نراقب أنفسنا أيضا، وسنتأكد أننا كنا شركاء أساسيين في كل ما مرَّ علينا من أحداث.

لم يعد هناك أي أثر للفرح، وفي مواجهة الباب الخارجي ترددتُ كثيرا، هل أعبره هكذا كروح لا يعوقها شيء، أم أفتح الباب كإنسان مهذب يعرف كيف يحترم كل الأشياء؟ وقبل أن أحسم الأمر داخلي سمعتُ نداء الشجرة التي كنت أستند عليها وأنا أرقب الفرح، ورأيت المرأة التي أتتْ بغتة من البعيد الموغل، أتتْ كذكرى دفينة حان وقت بعثها من جديد، وها هي تصر على التمسك بحق عودتها، فتتجسد إلى جوار ذات الشجرة، وفي المسافة التي امتدتْ بين نظرتينا تَشكَّل ممر هائل من الفراغ، راحتْ تنسل فيه كدخان لا يكف عن التدفق بقوة، وتطبع صورتها في ذاكرتي، كأنما تستمد منها الحياة، تسمرتُ مكاني كأنما وتد يثبت في الأرض، ولا يكف عن النزول إلى عمقها الغائر، وكلما نزلتُ في الأرض كلما اكتمل تَشكُّل صورتها بداخلي، وكان ألم التفاف الحبل حول رقبتي يخفت بذات العزم، كأني أبعث معها.

محطم الروح، وكعادتي بعد كل شجار خرجتُ إلى حديقة المنزل أبحث عنها، أحاول جمع أطرافها التي تتناثر مع كل معايرة تنقذف من روح زوجتي نحوها، كلما يئستْ من امتلاكي

رمتني بحجر، وذكرتني أنها جمعتْ أشلائي من التيه، عشرون عاما ولم تدرك بعد أن التيه فضاء رحب للأرواح التي لفظتها القسوة، ولم تمكنها من عشق الحياة، دُرتُ أرجاء الحديقة ببطء، كأني أحمل هموم العالم كلها فوق كتفيّ، وكلما نظرتُ إلى الأرض رأيتُ جزءا من روحي يتدحرج أمامي، ويأبى أن ألتقطه وأضمه إلى داخلي، يتدحرج بسرعة وعزم كأنه يسوقني إلى غاية محددة لم أدركها بعد، حتى بدتْ أشلاء روحي قطيعا بلا حصر يسير من أمامي، ممتدا من أسفل قدميّ حتى جذع الشجرة التي تقف وحيدة في مؤخرة الحديقة، وكلما لامس القطيع الجذع ذاب فيه، حتى رأيتني أقف أمام الشجرة وحيدا بلا أشلاء، وعلى عكس ما ظننتُ أنني سأصل إليها متعبا وبلا روح، بدوتُ مرتاحا وكأن روحي كلها قد رُدَّتْ إليّ دفعة واحدة، دخلتني الدهشة لكنني ابتسمتُ كثيرا للطمأنينة التي وجدتها في نفسي، وفي اللحظة التي كانت فيها البسمة تخرج لتعتلي ملامحي، رأيتها تخرج أيضا من خلف جذع الشجرة، بذات البسمة وذات الفرح، وكأننا على موعد تم تحديده بشكل مسبق، ودِقَّة لا تخطئ، امرأة التيه التي قطَّعتْ القسوة بين روحها وروحي، وأبعدتها ـ لعشرين عاما وَلَّتْ حتى هذه اللحظة ـ إلى مجهول لم أستطع الوصول إليه أبدا، تأتي الآن طواعية، وبذات الصمت الراضي الذي كان يلف روحينا قبل كل لقاء تتقطع أنفاسنا فيه، بدا داخلي ممتلئا بالكلام والأسئلة التي تبحث عن إجابات، وبدا داخلها فارغا كصحراء تبحث عن قطرة غيث تبل روحها المقتولة من الظمأ، لكن المسافة التي ظلتْ

تقصر بين عيوننا بدتْ أعنف من الأسئلة، وأقوى من الموت، ولا ترى شيئا سوى ظمأ الصحراء الذي يلهث خلف قطرة الغيث، لتهبه الحياة من جديد.

أرى الآن أنني كنت مغموسا حتى أذنيّ في صحراء الظمأ، وحتى أنني في فورة الارتواء لم ألتفت لعينيّ زوجتي اللتين كانتا ترقبان من بعيد، وتريان كل شيء، حتى فحيح الأنفاس المحموم رأته وهو يصعد من فوقنا، ليُضرم في أوراق الشجرة الوحيدة نارا لا حدَّ لقدرتها على إحداث الحرائق، وتشبه تماما تلك النار التي تحرق الآن روحها.

تُثبتُ الصور الحقائق أو تنفيها، لكنها عندما تتشكل في سياق واحد لا تترك لنا غير الألم، الذي مهما بدا صغيرا فإنه يكون مفرطا في وجعه، حتى أن الخط الفاصل بين أن نكون ضحايا أو جُناة يكاد ينمحي، ولا نكاد نعرف أنفسنا في العذاب، هكذا وقفتُ أمام الباب الرئيسي للمنزل بحِيرة كبيرة، لا أدري كيف أخرج؟! وفي التفاتتي الأخيرة للوراء رأيتُ امرأة التيه لا تزال تقف إلى جوار جذع الشجرة، وزوجتي تخرج من الغرفة في ذات اللحظة، وكلتاهما تُلوح بيدها نحوي، بلا فرق بين الوداع المبلل بقطرة الحياة، أو الدفع إلى الموت.

هكذا رأيتني أجري باتجاه الفندق، وكدفقة موجة هادئة تُلقي بجسدها النعسان على شاطئ ليلٍ باهت الإضاءة، انسابت قدماي على الطريق التي ستقذفني نهايتها إلى غرفتي الجديدة، أشعر أنني خفيف، كأني أطير، أو محمول على أكتاف

كثيرة تهرول بي بلا سبب أو غاية، سوى الوصول إلى الغرفة بأقصى سرعة، كأني أريد اللحاق بموعد قد تأخرتُ عنه بالفعل، حتى الرضا الذي ارتسم على وجه صاحب الفندق وهو يفتح الباب لي، والبسمة التي افترشتْ وجه موظف الاستقبال وهو يمد يده لي بمفتاح الغرفة، لم يقدرا على تهدئة أنفاسي، أو زرع الطمأنينة بداخلي، لم أهدأ ولم أطمئن إلا عندما واجهني باب الغرفة، فقذفتُ نفسي إليه كدفقة هواء تدخل في ثقب.

لم أدري كم من الوقت مرَّ عليّ وأنا ملقى على أرض الغرفة، لكنني شعرتُ بوخز خفيف في كتفي، كأن أحدا ما يوقظني، وعندما فتحتُ عينيّ وجدتني ممددا على الأرض في جلباب أبيض ناصع، ومربوط بإحكام عند وسطي وقدميّ، ووجدتهم جميعا من فوقي، دخلني خوف شديد لم أعرف مصدره، ولا أسبابه التي دفعتني إلى بكاء مفرط، كأن تعب الدنيا كلها يحط فوق كتفي، لكنهم تركوني حتى آخر دمعة سقطتْ من عينيّ، وحتى كفَّ جسدي عن الاهتزاز والنحيب، وعندما زحفتُ على يديّ إلى الحائط لاستند بظهري إليه، تحلقوا من حولي وجلسوا في صمت، وظللنا نتبادل الصمت بيننا حتى اطمأنتْ روحي، فسألتهم بهدوء ووهن:

ـ لقد تعبت حقا، وأريد أن أعرف كل شيء؟!

وفي جمود نظراتهم، وثباتها باتجاهي، بدا لي أن أحدا منهم لا يرى الآخرين الذين يلتفون من حولي إلى جواره، أن كلا منهم يراني أنا فقط، ويجلس معي وحيدا في الغرفة، وعلى طول

فترة الصمت بيننا لم يرمش أحد منهم ولو بطرف عينيه حتى، وظل مكتفيا بالدهشة التي علتْ وجهه وهو يحدق فيَّ مستغربا، ومتسائلا في صمت أيضا، لماذا تحدثني وكأنني لستُ وحدي؟! ولماذا تتجول عيناك في أرجاء الغرفة، كأن هناك آخرين يجلسون معنا؟! وجميعهم اتهمني بالجنون في سره قبل ينطقوا معا ـ معا في ذات اللحظة، وبذات القدرة على جلب الاستغراب ـ كأنهم ينطقون بلسان واحد:

ــ لا شيء يغيب، أنت فقط منْ يفشل في الوصول إليه.

أما أنا فقد كنت أستغرب نفسي كثيرا، وفي ذات الصمت الذي شملنا رحتُ أسألها كثيرا أيضا، كيف يتسنى لي أن أقرأهم جيدا إلى هذه الدرجة، وكأنهم كتاب مفتوح أرى فيه كل شيء.

لم أعد أصدقهم

كان من الممكن أن يسرقنا الوقت لولا أن أختي انتبهتْ.

فقد كانت الوحيدة التي استطاعت أن ترفع وجهها من بركة الحزن، الذي يخيم في أرض الصالة منذ أتى الخبر إلى أبي في الصباح، ويشد وجوهنا جميعًا نحوه بقوة وصمت وسكون تام، كأنما تماثيل قديمة في معبد مهجور، وبين الحين والآخر كان يقدر أيضًا على إسقاط الدموع الغزيرة من عين أمي، مصحوبة بنحيب قوي استطاع أن يهز سكونها، ويهتك صمتها بصرخات مكتومة، وخائفة من الوصول إلى أذنيّ أبي الذي لا تقدر على مواجهة غضبه العارم، بعدما نَهَرَنا بحزم عن الصراخ أو العويل قبل أن يتوارى في الغرفة المطلة على البحر.

لكزتْ أختي ذراع أمي بخِفَّة، نقرتها بسبابتها في نداء صامت، وعندما التفتتْ أمي إليها بصمت مقابل، ودهشة، أشارت أختي بإصبع يدها الأخرى إلى الساعة الكبيرة المعلقة على الحائط، فأبدتْ أمي اندهاشًا مفاجئًا كأنما تراها لأول مرة، وسرعان ما

علا وجهها عبوس مرير، بدتْ وكأنها ترى وجه شيطان حقيقي يتجسّد على حين غفلة منها، وبلا استعداد يصحبها إلى الجحيم، لقد تأكدتْ أن الوقت المهم الذي كنا جميعًا نتدثر بمروره الثقيل علينا ـ كأنما في انتظار معجزة ما تنفي خبر الصباح الحزين ـ قد انفلت من بين أيادينا فجأة دون أن يكشف عن شيء، ولم يبق أمامنا من مفر سوى مواجهة الحزن الذي ظلّ يقبع بخدعته بعيدًا، مرميًا وساكنا بأرض الصالة منذ الصباح، وها هو يغافلنا بغتة كضيف ثقيل، وغير متوقع حضوره، ترجرج جسد أمي بالنحيب المكتوم، وعندما دفنتْ وجهها في كفيها المضمومتين بقوة لم أعرف على وجه التحديد هل كانت تُبعد الحائط عن عينيها؟! أم تمنع الدموع الغزيرة التي راحت تتكوّم فيهما على امتداد نظرتها الغاضبة إلى الساعة، ولم يعد بمقدورها أن تحتجزها لأكثر من ذلك؟!

لكنني بعدما انحنتْ أمي بجذعها كله ـ لتُسقِط رأسها وكفيها بين فخذيها المرتعشتين أيضًا من البكاء ـ أيقنتُ أنها فعلتْ الشيئين معا دون أن تدري.

تدحرج جسم أمي ساقطًا في حجر أختي، التي كانت كعادتها دائمًا تضع إحدى رجليها على الأخرى بلا إرادة، ومع إحساسها بثقل جسد أمي، الذي يشبه في عينيها ثقل الغضب الذي ملأ كيانها كله قبل أسبوع من الآن، بعدما هجرها خطيبها، أنزلتهما ليستويا إلى جوار بعضهما حتى زال إحساسها بألم الثقل، وحتى استكان جسد أمي عليهما في وضع مناسب، يشبه القبر،

لكنه سمح بكتمان العويل الذي يخرج منها غصبًا؛ كي لا ينقذف صداه إلى الغرفة المغلقة، والمطلة على البحر الذي تظن أمي أنه سيبدأ في بث دوبه الهادر مثل كل مساء، والمكتوم على الغيظ من كل العالم الذي يقف على شاطئه، بعدما يحتمي بعباءة الليل السوداء، وهي تفرش نفسها على الدنيا مع دقات السادسة مساء، التي تعلنها الآن ساعة الحائط المُعلقة.

بعد برهة لم أستطع تحديد طولها الزمني جيدًا، وأنا أتابع اهتزازات جسد أمي فوق فخذيّ ابنتها بنهم غريب، ودهشة مفرطة، شدَّا عينيّ وانتباهي كما لم يشدهما الحزن المخيم على الأرض ــ استكان جسد أمي، وبدأ الهدوء يعود إليه، لكنني انتبهتُ جيدًا وهي ترفع وجهها لتعتدل في جلوسها على الكنبة، أن دقات السادسة مساء التي تضربها ساعة الحائط بصخب عالٍ قد انتهتْ أيضًا، وها هي العقارب الثلاث تعود سيرتها الأولى، من المشي على وتيرة إيقاعها المنتظم، المعتاد، داخل الإطار الزجاجي المحكم للساعة، مسحتْ أمي عينيها فبدتْ كأنما الدموع قد جفتْ منهما فجأة، بدتْ كأنها لم تبكِ من قبل، ولم ينتحب جسدها بذلك الثقل الذي لمحتُ ألمه في فخذيّ أختي، انقباضات ممتلئة بالضيق على وجهها الذي ظل يحوم في كل أركان الصالة ليُبعد عينيها، وانقباضات متخمة باللامبالاة في أصابع يديها العشرة، والتي ظلتْ تتكور في كفيها، وتنبسط بعيدًا عنهما، في سرعة وعنف مكتوم، حتى استكانتْ اليدان على ظهر أمي، بعدما تاهتا طويلًا في فراغ الصالة، ولم تجدا ملجأ غيره لتستندا عليه، هزَّتْ أمي رأسها كأنما تنفض عنه

الغبار، وأخذتْ نفسًا عميقًا استعادتْ به توازنها النفسي والجسدي، حتى أنها بدتْ ثابتة تمامًا وهي تفرد كفيها على اتساعهما في الهواء، لتُطمئن نفسها في مواجهة اللا شيء، ورددتْ بثقة:

ـ سأذهب الآن لمناداة والدكما من الغرفة، فقد حان الوقت للذهاب.

وهمَّتْ بالوقوف، لولا أن جرس الباب تردد صداه في فراغ الصالة بتردد، وعلى استحياء لم يكن مناسبًا أبدًا لقدومه المفاجئ، لكنه جعل أمي تعدل عن قرار نهوضها، لتظل في مكانها على الكنبة، وقد انتبه وجهها مندهشًا ومستفسرًا أيضًا.

كنت بأعوامي الاثني عشر أصغر أفراد الأسرة، ولأن أحدًا آخر لم يكن بالصالة غير ثلاثتنا، فقد اتجهتْ عينا أمي نحوي بإشارة حازمة للنهوض إلى باب الشقة، ومعرفة منْ ذلك المجنون الذي فكّر في المجيء إلينا الآن، وكيف طاوعته قدماه على الوصول إلى هنا، مع بداية الدخول في وقت الحظر الكلي الذي تم فرضه على المدينة، ووسط ذلك الغم الذي يحوم حولنا من كل جانب، وجعل معظم أهل المدينة يتحاشون التعامل معنا، أو حتى رؤيتنا من الأساس، الحزن على الأرض كان يغلي، يفور كسائل لزج وثقيل مثل بالونه سميكة وهو يقاوم الغليان من تحته، لكنه في نهاية الأمر يبقبق مثل ضفدع عجوز، وهو يقذف من جوفه آخر نفس سخن له في الحياة قبل أن يُشرف على الموت، لذلك مشيتُ حذرًا، أتحاشى وهجه

الصاعد بصعوبة شديدة، مخافة أن يلتصق بي شيء من الحزن، فأفقد وعدي الذي قطعته على نفسي للجَدَّة، قبل أن يأتوا ويحملوها قهرًا إلى مستشفى الحجر الصحي، على بُعد ثمانين كيلو متر من مدينتنا.

آخر منْ كنا نتوقع مجيئها إلى بيتنا مرة أخرى هي العمة، ومع ذلك فقد فُتح الباب على وجهها الدامع، لقد أخبرها أبي في الصباح بمجرد أن امتصتْ روحه صدمة الخبر، ثم برر لنا ذلك بأنه يخبرها فقط من أجل اتباع الأصول، رغم ثقته المؤكدة بأنها لن تأتي، لكنها الآن أتتْ، وفيما يبدو أنها ظلتْ تبكي على طول الطريق إلى هنا، وأمام الباب ـ أو قبله قليلًا ـ حاولتْ مسح دموعها لتبدو أكثر قوة وصلابة كعهدنا الدائم بها، غير أن أثرا للدموع فضحها، وظلّ متناثرًا على خديها بعشوائية وعجلة أصابعها التي ارتعشتْ أثناء المسح، وما إن رأتني حتى تقدمتْ خطوة إلى داخل البيت، خطوة واحدة فقط فعلتها بقوة وحزم كأنها تختبر ثباتها، وعندما تأكدتْ من ثقتها بنفسها جذبتني بيد واحدة إلى جانب حضنها الأيمن.

بغض النظر عن موقف أبي وأمي وأختي المتخاصم مع عمتي إلا أنني أحبها جدًا، أحب الجلوس إليها وسماع صوتها العذب وهي تغني، أحب حكاياتها الشيقة، وطريقتها الولهانة في الحكي كأنها تمثل، وهي تضمني إلى صدرها كل ليل، أحب حتى مجرد النظر إليها من بعيد وهي تروح وتجيء في البيت، مشعلة أركانه بالحركة والغناء والمرح، ومن أجل كل هذا الحب

كنتُ أكثرهم حزنا على قرار أبي الحازم في العام الفائت بمغادرتها البيت، وعودتها إلى زوجها مرة أخرى، لذلك شهقتُ فرحا لما رأيتها، وفردتُ ذراعيّ على امتدادهما حول وسطها آخذها في حضني، لوهلة شعرتُ بسكونها المفاجئ وكأنها لم تكن تتوقع كل هذا الاشتياق من ناحيتي، ربما فكرتْ أنني كبرتُ خلال هذا العام بالقدر الذي يسمح لي بالتأثر بآراء أبي وأمي وأختي فيها، ولوهلة غير محسوسة شعرتُ أنني أرى انطباعات وجهها بشكل كامل في الأعلى.

تتميّز عمتي بالطول الفارع، لذلك كان وجهي في حضنها مدفونًا أسفل صدرها تمامًا، ومتجهًا إلى أسفل من فرط الفرح، ومع ذلك فقد رأيتُ كل شيء وهو يرتسم على وجهها، دهشة الحضن، الفرح به، يداها وهما تلتفان حول ظهري لتشاركني بهجة العودة، وأخيرًا رأيتُ انقباضه المفاجئ، تحديدًا في اللحظة التي بدأتْ تغمض فيها عينيها لتذوب في بهجة الحضن، وبدأتُ أشعر أنا باشتياقها المتبادل لي، ولم أستطع أن أحدد هل حدث ذلك بسبب التقاء نظرتها بنظرة أمي الحادة، وهي تنقذف نحوها من عمق الصالة؟! أم أن انقباض ذراعيّ حول خصرها بدا أكبر من قدرتها على الاحتمال؟! فقد كان أول ما فعلتَه عمتي للخروج من الحضن أن التفتْ يداها خلف ظهرها لتفض اشتباك يديّ من حوله، بعدها قبضتْ بكفيها على كتفيّ متناسية كل هذا الحزن الذي أتى بها إلى هنا، وابتسمتْ في وجهي بدلالها المعهود، الذي يُشكّل سببًا رئيسيًا في غيظ أمي منها، بعد اتباعها الأعمى لتوجيهات أبي الصارمة، وهمستْ:

ـ على مهلك يا ولد، فقد صرتَ رجلا الآن.

ونظرتْ باتجاه أمي وهي ترفع من نبرة صوتها:

ـ ومع ذلك ستظل طفلي المدلل إلى الأبد.

بدا المشهد استثنائيًا جدًا وسط كم الحزن الذي يلفنا، وبمجرد انتهائه مع انكسار نظرة أمي في الأرض على الغيظ، رأيتُ السواد يعود ليُدثِّر كل شيء من حولنا مرة أخرى، أغلقتُ الباب وبدتْ عمتي في تقدمها باتجاه أمي وأختي ـ بعدما وضعتْ الكمامة على أنفها وفمها، وأحكمتْ وضع يديها داخل القفاز ـ كأنما تخوض في الجحيم، لم تكن ترى قمم الحزن التي تتفجر عن الصهد في أرض الصالة، لذلك داستها بثبات وثقة عجيبين، وعندما جلستْ إلى جواري ـ في مواجهة أمي وأختي بعد انتهاء السلام البارد بينهن ـ رأيتُ أبخرة الحزن التي علقتْ بقدميها وهي تتسلل لتصعد على جسمها كله، فعرفتُ أنها قد دخلتْ في الأجواء السوداء التي تسيطر علينا منذ الصباح، وأنه بات من المستحيل عليّ الآن أن أسألها عن أي شيء آخر، من شأنه أن يطمئنني على حالها خلال العام الذي ولَّى.

تذكرتْ أمي أنها كانت ستنهض للدخول إلى أبي، وإخباره بأن الوقت قد حان للذهاب إلى المقابر، لكنها تذكرتْ أيضًا أن عمتي قد انضمتْ إلى جلستنا، فأرادتْ أن تمارس قدرًا من السيطرة على المكان بمنْ فيه، فقط لتُخبر عمتي أن الأمور قد تغيرتْ عما كانت عليه قبل عام، وأن عليها ألا تفكر في شيء

من المؤكد أنه ينتمي الآن إلى ماض لن يعود، نظرتْ أمي إليَّ بحِدَّة، وأخبرتني بحزم أن عليَّ الدخول إلى الغرفة المغلقة لمناداة أبي، ولم تترك لي أية مساحة للهروب أو الرفض، فقد رأيتها وهي تتحوَّل فجأة إلى ذئبة، ذئبة حقيقية وإن لم يرها أحد غيري، وبدا من الغباء أن أصطدم بأسنانها المشرعة على الفتك.

كل شيء بدأ داخل هذه الغرفة، إنها غرفة جدتي وليست غرفة أبي، فغرفة أبي لا تطل على البحر، لكنه بعد برهة قصيرة من تلقيه خبر وفاة الجدَّة في مستشفى الحجر الصحي في العاشرة صباحًا، وجدناه يُنهي تفكيره المستغرق الذي رماه على كنبة الصالة بسكون الموتى، ويقف محتدًا ليأمرنا بألا يدخل عليه أحد الغرفة إلا عندما يحين الوقت، ظننا جميعًا أنه سيدلف إلى غرفته بجوار المطبخ ليغرق في حزن خاص، لكننا بُهتنا فعلا ونحن نراه يدخل غرفة الجدَّة المطلة على البحر بثقة وتلقائية، كأنما يعرف طريقه إليها جيدًا، ولم يخرج منها إلا قبل ساعة من الآن، وهو يأتي ببذلته السوداء من غرفته ليرتديها في غرفة الجدَّة أيضًا، لذلك بدتْ خطواتي نحو بابها حذرة، فهي المرة الأولى التي لن ينفتح فيها الباب عليها، ومماثلة تمامًا لذات الخطوات التي مشيتها نحوه قبل أسبوع من الآن، بعدما أتى رجال الشرطة بمصاحبة رجال الإسعاف، وأخبروا أبي بحتمية نقل الجدَّة إلى مستشفى الحجر الصحي، بعد ظهور نتيجة التحليل الإيجابية، وتأكُد إصابتها بالفيروس اللعين الذي انتشر على طول البلاد كلها، لينشر فيها الموت، واستجابة أبي

الفورية لذلك، هزَّ رأسه مطرقًا ولم يُبدِ أي اندهاش على الإطلاق، كأنه كان يتوقع كل ما يجري، كنا قد دخلنا بالفعل في أزمة تفشي الفيروس بيننا بمجرد ظهور أعراضه الأولية على الجدَّة قبل أسبوع كامل، ظلتْ خلاله محبوسة في غرفتها، وحيدة لا يمكنها الخروج، ولا يمكن لأحد أن يدخل عليها إلا لضرورة الغذاء أو الدواء، وبعد أن يأخذ احتياطاته الصحية كاملة، من ارتداء القفاز والكمامة ورش يديه بالكحول والمطهرات اللازمة للوقاية، إلا أنا.

كنتُ الوحيد الذي لا يكف عن التسلل إلى غرفتها، والارتماء في حضنها على طول الليالي السبع التي لفَّتنا، وتحت وشيش البحر الهادئ الذي بدا أنه يأتي من بعيد في الليلة الأولى، لكنه سرعان ما بدأ يقترب من بعدها كأنما ليأنس بوجوده إلى جوارنا، ومشاركتنا الحديث الخافت، حتى أنه في الليلة السابعة كان يرتمي أسفل قدميّ الجدَّة تمامًا بهدوء شديد، وهيام عاشق لا يكف عن الاستماع إليها، أو مداعبة أصابع قدميها وهي تتبادل قذفهما على شاطئه، إنهما حتى لم يشعرا بتسللي الحذر الذي ظلّ يرافقني في الغرفة بعد دخولي إليها، وإحكامي غلق الباب من خلفي، لم أكن قد واجهتُ الجدَّة بعد، لكنها همستْ بود وهي تناديني للانضمام إليهما، بُهتُّ ووقفت في مكاني مأخوذًا لفترة، ولم أمتلك شيئًا غير التحديق في كل ما يحدث، كان سرير الجدَّة ممددًا أمامي، رأسها نحوي وقدماها هناك عند مؤخرة السرير، في مواجهة باب البلكونة الشيش المفتوح على البحر، وظلال الضوء الأبيض الخافت

تدهن الغرفة بلون فضي لامع، يشبه تمامًا ذات اللون الذي كان يعكسه ضوء القمر الساقط على مياه البحر، وكأنه يذوب في تموجاته الواهنة في سكون الليل قبل أن يدخل الغرفة، ويداعب أصابع قدميها، وهي تحركهما في ظلاله التي تظهر وتختفي مع تموجات الماء من تحتهما، وتتبادل وضعهما فوق بعضهما كلما تعبتْ من وضع الثبات في رقودها الطويل على السرير، بدتْ ظلال الضوء الفضية مهيبة فعلا مع الصمت المطبق الذي كان يسيطر على الغرفة، ولم يكن يقطعه غير تلك الدقات الواهنة لأحجار المسبحة، التي تتراكم فوق بعضها كلما دفعتها أصابع الجدَّة، مصحوبة بصوتها الذي راح ينقذف في أذنيّ همسًا واهنًا ومتواترًا ومتقطعًا، يخرج من الجدَّة بجهد شاق مع تهجد أنفاسها، لكنه لا يكف عن الخروج، أو الوصول إلى أذنيّ، حتى ظننتُ أنني أدخل كهفًا أسطوريًا عظيمًا لحكاية قديمة من حكاياتها التي كانت تهدهدني بها، كلما استعصى عليّ النوم بين ذراعيّ أمي وأنا صغير، وما إن كررتْ الجدَّة نداءها مرة أخرى حتى قفزتُ مرتميًا إلى جوارها، ومددتُ قدميّ للبحر، كأنما أبغي الدخول في حضنها الذي لم يتوانَ يومًا عن احتوائي، حضنتني الجدَّة، وفيما كانت حبات المسبحة تتدلّى من يدها إلى صدري، كانت أصابع يدها الأخرى تتغرس في شعري بوهن محبب، كأنما تُعيد ترتيبه من جديد، وهي تهمس كأنها تُحدث نفسها:

ـ إن كل ما ينقصنا هو الإيمان يا ولدي.

لا أعرف حجم التنهيدة التي خرجت من الجدَّة، لكنها كانت طويلة وآسية، وعلى خلاف نَفَسِها الذي كان يَقْصُر أسفل الكمامة من شدة مرور الأزمة عليها، جاءت التنهيدة ممتلئة بهواء كثير وبارد، أنعش جسدينا ودفعنا للاسترخاء في تمددنا على السرير، حتى البحر انتعش جسده وتمطى ممدداً إلى خارج الغرفة، وانسحبتْ الأمواج من خلفه بهدوء غريب، حتى استكان الشاطئ إلى سيرته الأولى على بُعد خطوات قليلة من شُرْفة الجدَّة.

بعدها ابتسمتْ الجدَّة في عينيّ طويلًا، ابتسمتْ بفرح حقيقي لم أره في عينيها من قبل، ثم كوَّرتْ المسبحة في يدها ودستها في جيبي، فحملنا طائر النوم على جناحيه حتى الصباح، حتى دخل علينا أبي ووقف عند مؤخرة السرير مثل أسد ممتلئ بالغضب، أحسستُ فعلا أنه لن يتردد أبدًا عن افتراسي لولا أنني أفلحتُ في مراوغته، والهروب بحياتي منه إلى الشارع، كنتُ أجري مفزوعًا باتجاه الجبل العالي في آخر المدينة، لكنني منذ ذلك الوقت استطعتُ أن أرى كل شيء يحدث من خلفي، بل إنني الآن أستطيع أن أرى كل ما يحدث في دواخل الأشياء أيضًا، بيسرٍ كبير.

تعيب أبي الصرامة في كل شيء، وعدم قدرته على التعبير عن محبته لكل الأشياء، مهما بلغتْ درجة ذوبانه عشقًا فيها، ربما من أجل ذلك يُصر ـ بشكل غريب، ومبالغ فيه ـ على أن يعاملني إلى الآن باعتباري مجرد طفل صغير، لم تتفتَّح عيناه

على أمور الدنيا بعد، غير أن عينيّ قد تفتحتا منذ زمن يا أبي، ربما لا أستطيع حسابه على وجه الدِّقة، لكنني أعيه جيدًا، وأذكر بوضوحٍ تامٍ تلك الصفعة التي انهالتْ بانفجارها المكتمل على وجهي، وأنتَ تراني أُطل من شُرفة جدتي على بيت الجارة، وهي تنشر ملابسها الصغيرة في الشُرفة المقابلة، رغم أنها كانت تفعل ذلك تحت عين الشمس، وكل الناس يمرون أسفل منها، أفاقتني الصفعة يا أبي، كأن انفجارها المكتمل كان صحوًا مكتملًا أيضًا، فسِرْتُ في الشارع منتبهًا، مفتوح العينين، أنظرُ إلى كل شيء بحِدَّة وتركيز شديدين، لكنني لم أجد الحقيقة، لا في المكان، ولا تحت عين الشمس، ولا في أي شيء بدا لي أنه يمتلك قدرًا من الحياة وهو يتحرك من حولي، فلم أجد سبيلا سوى الاعتماد على حدسي فقط، وما يُخبرني به إحساسي تجاه كل شيء، وبعد عدة خطوات من الجري اللاهث، الممتلئ بالخوف والغضب، في الشارع، وجدتني لم أبتعد كثيرًا عن بيتنا، ووجدتُ الشيخ متدثرًا بملابسه المهلهلة يفترش منتصف الشارع بين شُرفة بيتنا وشُرفة الجارة، وفي مواجهة البحر تمامًا.

في البداية أتى الشيخ مهرولًا في مواجهتي من جهة الزروع المتناثرة أسفل الجبل، لم ينظرني، ولم أكن لأنتبه إليه وسط أمواج الغضب والخوف التي كانت تفور من حولي أثناء الجري، لكنني عندما توقفتُ بعد عدة خطوات لألتقط أنفاسي، لمحته يثبت من خلفي في مواجهة الملابس الصغيرة التي لا تزال الجارة تنشرها في شُرفتها، كنتُ أنظر باتجاه الجبل ـ الذي

تلامس أطرافه حدَّ السماء على البُعد ـ بغية الهروب إليه، لكن شيئًا ما نبتَ داخلي ليخبرني أن شيئًا مهما يمكن أن يحدث الآن، ولم أعرفه بعد، هكذا تجسدتْ فجأة أمام عينيّ تلك النظرة الخاطفة التي تبادلتها أعيننا بشكل غير محسوس، في نقطة التقاء جرينا المتعارض، ولم أنتبه لحظتها لانكسار عينيه الخاطف وكأنه رأى الحقيقة بين عينيّ، وعندما بدأ الشيخ يرغي بهمهمات تشبه الكلام الذي يتداخل في بعضه، حتى لا يكاد يفهمه أحد، وبدأ لعابه يسيل على صدره في دورانه المحموم حول نفسه كأنه يرقص، نفضتُ الغضب والخوف من حولي، ورجعتُ لأرى ما يمكن أن يُسفر عنه الأمر، جثا الشيخ بركبتيه ويديه حتى لامستْ مسبحته الأرض، وجثتْ معه آهة طويلة وزاعقة وهو يردد جملته الأثيرة الدائمة "حي، مدد" مرات كثيرة، ثم يرتكز على ركبتيه مُطَوِّحًا جسده المكتنز باللحم الوثير في الهواء، وفاردًا ذراعيه الطويلتين إلى عنان السماء، وفيما كان رأسه لا يكف عن الدوران الذي يغلي فوق رقبته، وقد بدتْ مع تَطَوِّح مسبحته الطويلة في الهواء كأنها تعاني من آلام الشنق، ظل فمه يزعق بنداء الكلمتين، اللتين لم يستطع أحد من الناس الكثيرين الذين تجمهروا من حوله ـ غير عابئين كثيرًا بالحظر الذي تفرضه عربات الشرطة على الشوارع منذ انتشار وباء الفيروس ـ أن يفهم على وجه الدِّقة، ما الذي يريده الشيخ من وراء ندائه الصاخب هذا؟!

ومع ذلك فقد ظلوا يستمتعون برقصته المجنونة، ويتجاوبون معها على مدار ساعتين كاملتين، حتى قام الشيخ يتوسّط

دائرتهم من حوله بعينين حمراوين، ظلتا تبصان إلى غور عميق، عجزوا جميعًا عن استبيان ملامحه في عيونهم، التي ظلت تتبع عينيه أينما نظرتا دون جدوى، لكنه في نظرته الخاطفة التي تبادلها مع عينيّ عامدًا هذه المرة، وهو يطوف على أعين الناس كأنما يسحرهم، بدا ساخرًا كأنه هو الذي يمتلك الآن زمام كل شيء، وفيما كانت سيارة الإسعاف تنقل الجدَّة إلى مستشفى الحجر الصحي البعيد، دون أن ينتبه إليها أحد من الناس، كان الشيخ يخطف أبصارهم جميعًا، وهو يندفع بكل عزمه وقوته باتجاه البحر، حتى اختفى في أفقه الموغل هناك في العمق البعيد، كنت أراه يغرق كلما توغل في البحر، وكانت الجارة تنظر إليه بدهشة وفرح حقيقيين، كأنها لا تصدق ما ترى، وعندما اختفتْ على السطح آخر فقاعة هواء لأنفاسه المنبعثة بصعوبة وبطء من تحت الماء، رحتُ أنظر في الأرض بأسى كبير وممتد، لكنني وجدت الجارة تنظر إليّ وقد افترشتْ وجهها بسمة كبيرة وواسعة، وهي تردد:

ـ أترى كيف يسير على الماء؟!

أخطو الآن بحذر ممتلئ بالخوف، الخوف حتى من نسيان أن أطرق الباب على أبي قبل دخولي إليه، ومع ذلك فقد دخلتُ بلا مبالاة كاملة عندما لم يأتني رَدَّه، وجدتُ الغرفة بذات إضاءتها الخافتة التي تحبها جدَّتي، وتُعبئ روحها بالطمأنينة في مرور الوقت والوحدة عليها، لكنها لم تكن ممددة في سريرها، وكان أبي يقف خلف درفة الشيش المواربة على استحياء، ورأيتُ

عينيه وهما تتمزقان هناك في ظلمة الشارع، في الأشياء الصغيرة المعلقة على حبل الجارة التي تُوفي عنها زوجها منذ سنوات، ولم تتزوج من بعده، فعرفتُ أن الشُرفات عيون، وكررتُ طرقي على الباب حتى وصل إلى أذنيّ أبي، التفتَ بغيظ وقلق، لكنه بدا واثقًا بعض الشيء عندما رآني، وعرفَ أن الوقت قد حان للذهاب إلى المقابر ودفن جثمان جدَّتي، حسب تعليمات الاتصال التليفوني الذي جاءه في الصباح.

أحكمَ أبي إغلاق درفتيّ شيش الشُرفة، وسار بتؤدة وحزن حتى تجاوزني في الخروج من الغرفة، ليقف أمام بابها بشموخ وكبرياء كاملين في مواجهة النساء الثلاث في الصالة، واللاتي وقفن باحترام شديد وصامت بمجرد رؤيته، ربما بدتْ عمتي أكثرهن تباطؤا في الوقوف إليه، لكنني عندما لمحتُ أبي يختصها بتلك النظرة الحادة من طرف عينيه، والتي بادلتْ صمتها بصمت أكبر وأكثر سخرية، عرفتُ أن عمتي قد فعلتْ ذلك عن عمد، وكان الصمت بينهما ممتلئا بالكلام المكتوم، الذي استطاعتْ عيناي أن تُترجما كل حرف فيه:

ـ لا تطمعي في شيء هنا، فزوجك سيموت أيضًا في الوباء، وسترثين كل ما لديه.

ـ وإذا لم يمت؟!

ـ إذا لم يفعلها، سأتولى أنا كل شيء.

وعندما أومأتْ عمتي برأسها موافقة، بدأنا جميعًا في تجهيز أنفسنا للذهاب إلى القبور.

قبورنا تكمن هناك أيضًا، وسط الزروع المتناثرة أسفل الجبل العالي، كأن الموت والحياة ينقذفان منه إلى المدينة، بينما يقف هو صامتًا بلا حركة منذ آلاف السنين كأنه يخدعنا، ونحن ننظر إليه من فوق عتبة بيتنا بدا مهيبًا في ظلام الليل الذي بدأ يفرض سيطرته على المدينة، وباعثًا للخوف رغم أن حَدَّه العالي ـ الذي يُحيط بالمدينة كلها ليحصرها بينه وبين البحر ـ قد بدأ يختفي في جسد السماء التي تَدْخل الليل بلا قمر أو نجوم، حتى لتظنهما جسدًا واحدًا يهبط بالظلام إلى الأرض، لكن ما اندهش له أبي حقا وأثار تساؤله، هو عدد الناس الكثيرين الذين يملؤون الشوارع، ويتجهون إليه، فقد بدا المشهد مهيبًا بالفعل كأن المدينة كلها تذهب الآن إلى القبور، رغم الوباء والحظر وتكتُّمنا للأمر حتى تنتهي مراسم الدفن بمعرفة رجال الإسعاف القادمين بالجثة، تبادلنا النظرات الحائرة، لكننا فشلنا في إجابة السؤال الأهم، منْ الذي أخبرهم؟! وعندما فشل أبي مرة أخرى في أن تؤكد نظراته الحادة الغاضبة نحونا شكوكه التي تعتمل في صدره، سرنا باتجاه القبور كأسرة واحدة، لم نكن نشترك في شيء غير السواد الذي نرتديه، وتلك المجاهدات المضنية التي نبذلها في صد نظرات الناس، وهي تنقذف علينا من البُعد الذي يُحيطنا كدائرة محكمة الصُنع، محملة بالنفور والخوف والاشمئزاز، وأحيانًا بالشفقة على ما يؤول إليه حال عائلة لطالما امتدتْ أياديها في سماء المدينة

باللين والعذاب، وكانت الطريق تصعد بنا نحو الجبل على مهل، كأنما تشترك في خداعنا معه، فما إن داستْ أقدامنا أرض القبور حتى أسلمتنا إلى مفاجأة لم نكن نتوقعها على الإطلاق، لقد التقينا جميعًا ـ نحن والناس وسيارة الإسعاف وجثمان الجدَّة والقبور أسفل الجبل ـ على ذات اللحظة التي تم تحديدها بشكل مسبق وحازم، فلماذا يلتف أهل المدينة الآن حول السيارة، ليمنعوا دفن الجدَّة؟!

لم يُجدِ إخبارهم إن القبور لا تشي بأسرار أهلها، ولم تشفع المهمة الرسمية لرجال الإسعاف في أن يفسحوا لهم الطريق إلى القبر لإنهاء عملهم، فقد بدا خوفهم من انتقال العدوى إليهم أكبر من كل الأشياء التي كانوا يخافونها من قبل، بدا خوفهم من الموت كائنًا أسطوريًا يخرج من أعمق أعماقهم حتى طاول الجبل من فوقهم، فلم يَحُدَّه شيء من بعد، رأيته وهو ينثر بذوره في أرض القبور من تحتهم، لتُثمر نباتا أحمر في ذات اللحظة، رأيته وهو يحصده ويطعمهم به، ورأيتُ عيونهم جميعًا وهي تتحول بلا إرادة إلى اللون الأحمر القاني، كأن دمًا فاسدًا عَصَرَ نفسه فيها لآلاف المرات، حقدًا على كل شيء، وصبغها لتحرق كل شيء أيضًا، فجريت مهرولًا، جريتُ بحزني كله أملًا في النجاة، وفيما كانت غرفة جدَّتي تتراءى أمام عينيّ كمكان مناسب للاحتماء من كائن الخوف الأسطوري، كنتُ أرى كل شيء يحدث من خلفي.

قالوا إن العجائز هم الأكثر عُرضة للإصابة بالوباء، وقد أصيب الكثير من الشباب والأطفال، قالوا إن قليلي المناعة فقط هم الأكثر موتًا به، وقد بدا آلاف الموتى بصحة مفرطة قبل أن تبتلع صدورُهم الموتَ، حتى جَدَّتي لم يحدث أنها اشتكتْ من أي نقص، أو ألم، قبل أن يضيق صدرها بالحياة، لذلك لم أعد أصدقهم، على الأقل لم أعد أصدق الكثير مما يقولون، لم أعد أصدق شيئًا سوى حدسي الممتلئ الآن بالحزن، والوحدة، والخوف من أن يتحول كائنهم الأسطوري للخوف من الموت، إلى مقصلة هائلة لقتل الحياة نفسها، لذلك أحكمت إغلاق الباب على روحي جيدًا، وأعددتُ نفسي للموت.

بدتْ الغرفة بإضاءتها الخافتة باب قبر يُفضي إلى ظلام أكبر، ومع تمدّد جسدي على السرير شملني السواد تمامًا، ولم يبق في الغرفة شيء سوى دقات قلبي وهو يرتطم بحافة الحياة، وغمغمة وشيش البحر ـ المكتوم على الغيظ ـ وهو يأتي هادرًا من خلف الشيش المغلق، كأنما نقرات ثقيلة وجاثمة لخطوات الموت وهو يأتي من بعيد، فيتصلب جسدي، وتعلو أطراف السرير بأسوار خشبية مصمتة على جانبيّ ومن أمامي ومن خلفي، كأنما صندوق يتم تجهيزه بإعداد محكم لاحتواء الميت القادم.

أما هناك ـ تحت سطوة الظلام وكائن الخوف الأسطوري ـ فقد كان الدم القاني يتناثر من عيونهم، فيموت كل منْ تُصيب جسده أو ملابسه بُقْعَة منه، ووطيس الاقتتال يعلو، حتى إذا

سقط أغلبهم في الموت، نفخ فيهم الكائن الأسطوري ناره ليعودوا أحياء مرة أخرى، ويتقاتلون من جديد.

هكذا امتلأتْ الأرض تحت أقدام الموتى الأحياء ببرك الدم، وتشققتْ عن قبور لا حصر لأفواهها المشرعة على التقام الموت، وهكذا اهتزّ الجبل العالي قويًا وصاخبًا من فوقهم جميعًا، كأنما ينفض عن نفسه غبار آلاف السنين الذي تراكم عليه من دوس أقدامهم الغاشمة، وحكايات عقولهم المفتوحة دوما على ظلام أبدي، ولا حد لانتهائه، فصمتوا جميعًا، صمتوا بلا نفس، وتَحَجَّروا على أوضاعهم بلا أدنى حركة، ولم يبقَ منهم حيًّا سوى عيونهم التي شخصتْ بلا إرادة، وببلاهة الدنيا كلها، باتجاه السماء، لتستقبل الصاعقة التي حولتهم إلى جرذان وخفافيش وحشرات متناهية في الصِغر، وتسعى بلا غاية، فيما تحوَّل الكائن الأسطوري لخوفهم التليد إلى فيل ضخم، وبدأ يسوقهم نحو البحر.

الآن يُحكم صندوق الموتى نفسه من حولي، وينبت له سقف سرعان ما يتكئ على أسواره الخشبية الأربعة، ليحجب عن عينيّ آخر شعاع للضوء ظننته يمتد بيني وبين البحر، وفي الوقت الذي بدأتْ تعلو فيه النقرات الجاثمة لأقدام الموت من حولي، بدأ تَصلُّبُ جسدي ينفك ويرتخي استعدادًا لقدومه، وانطبقتْ جفون عينيّ على إغماضه لينة، لتتدثر بهدوء عظيم وخالد، كان كل شيء في جسدي يدعوني للسكون، إلا روحي، فقد ظلتْ مستيقظة ترقب كل شيء، كأنما عن قُرب، وتلكزني

بإلحاح كأنما لتبعث بداخلي شيئًا ما لا أستطيع العثور عليه، ولم تتوقف عن لكزي إلا وأنا أتذكر مسبحة الجدَّة، وأعرف أنها ظلتْ محبوسة في رقبتي على مدار الأيام السبعة الفائتة كلها.

بوهن مؤلم، وصعوبة تشبه تفتت قطعة ضخمة وثقيلة من الثلج، تحركت أصابعي نحو المسبحة، وما إن لمستُها حتى دوتْ من حولي غمغمة البحر الهادرة، كأنما ريح عاتية تتقذف من جوفه باتجاه الغرفة، سمعتُ صوت انفتاح درفتيّ شيش الشُرفة صاخبًا وهو يصطدم بالحائط، شعرتُ بالصندوق الخشبي وهو يتفكك ويتطاير مرميًا إلى خارج الغرفة، ورأيتُ جدَّتي تقف على رأسي بذات ابتسامتها الملائكية الصافية، تمد يدها نحوي وتسحبني نحو البحر، حتى وقفنا على شاطئه، فاستدارتْ الجدَّة في مواجهتي، خلعتْ المسبحة عن رقبتي بحنو بالغ ووضعتها في يدي، وراحتْ تهز يديها المضمومتين على يديّ بين وجهينا بذات الحنان، وقد امتزج بحَزم نظرتها الرقيقة كأنما تريد أن تُثبتني، قبل أن تُغمض عينيها عني، وتتركني عائدة باتجاه الجبل، كانت تعود في صمت، وصورتها الملائكية ناصعة البياض والنور تَصغر في عينيّ كلما ابتلعها البُعد، وفي اللحظة التي اختفتْ فيها تمامًا أسفل الجبل البعيد العالي، وهو يُحيط بالمدينة كحارس قوي وأمين، بدأ صوتها يتردد في الفضاء من حولي مهيبًا، ونافذًا إلى عمق الروح الفرحانة:

ـ كل ما نحتاجه هو الإيمان يا ولدي.

وعندما كنتُ أتمدّد بجسمي كله على الشاطئ في مواجهة البحر، وأقذف قدميّ إلى شاطئه لتداعب أصابعي الموج الهادئ، بدا صوت ارتطام حبات المسبحة في تراكمها الذي يعلو بين يديّ، موسيقى لا حد لعذوبتها التي تتناهى في كياني كله، ومن خلفي كان الفيل الضخم يهبط من الجبل، وهو يسوق القطيع من أمامه، وعندما مرّوا من جواري غرقوا جميعًا في ماء البحر.

الشُرفة

أنا نصف قلب

ونصف روح

ومع التقدم في العمر

أصبحتُ نصف جسد

فماذا سيغري اليمام؟!

كي يحط على شجرة خريفية

أو يمرّغ عينيه في اللون الأصفر

...

وحدي في الشُرفة، وما بين نظرتي المتعَبة والشارع الممتد أمام عينيّ تتراكم الأشياء بعنف، ومع ذلك أشعر أن الحالة التي تنتابني كل يوم عند الغروب، لم تُصبني اليوم بقسوتها المفرطة،

حاولتُ أن أرد ذلك إلى أنني لم أتلقَ اليوم تهديدًا مباشرًا من ملاك الموت، لكنني استغربتُ من نفسي كثيرًا وأنا أنظر إلى داخلي، وأرى تلك المساحة الشاسعة من البياض الذي يملأني، كأن ملاكًا طيبًا هبط من السماء وتلبسني فجأة، فبدوت صافيًا ونقيًا ولا أشعر بشيء على الإطلاق، لا تجاه نفسي، ولا تجاه كل هؤلاء الآخرين الذين ملأوني بالأذى من قبل، والذين تمر صورهم الآن أمام عينيّ مثل شريط سينمائي لا يكف عن التدفق بقوة وسرعة، كأنهم يأتون فقط ليذهبوا، أو يتلاشوا، أو ليطلبوا الغفران تكفيرًا عن كل ذنوبهم السابقة، بحيث لا أشعر مع مرورهم السريع هذا بأي ألم على الإطلاق، بل أشعر ـ ولأول مرة في حياتي التي تمتد الآن لنصف قرن كامل ـ أن السماء تقف إلى جانبي أخيرا، وأنها تهبني من القوة ما أقدر به على مسامحة الجميع، وتجنب الألم.

اتكأتُ بظهري إلى الوراء حتى لامس ظهري المقعد، ورفعتُ وجهي بثقة في وجه الشمس الغاربة، فتحتُ عينيّ بلا خوف في لونها البرتقالي الغامق، وعندما تأكدتُ من إحساسي، قبضتُ عليه جيدًا، عبر تنهيدة طويلة أفرغتْ كل الهواء الذي كان يشغل روحي من قبل، فهل كان ما يشغلني حقًا هو الهواء؟!

لم تستغرب الرعشة التي أصابت جسدها كله، بل استجابت طواعية للرغبة التي أنبتتها بداخلها، فأشارتْ إليّ كي أجيء، وكنتُ مثل سفينة تنتظر إشارة الفنار على البُعد، ما إن رأيتُ أول شعاع لضوئه المقذوف نحوي، حتى قذفتُ نفسي إلى

داخل الحديقة، وقفنا صامتين في مواجهة بعضنا، كأنما لنتأكد من حقيقة وجودنا المباغت، وفي المسافة التي فصلتْ دهشة المفاجأة عن ثبوت الحقيقة، تهشم البُعد، وتكسر العتاب، وتحطمت القيود التي وضعها الشرطي بإحكام شديد، وبإيعاز من الجميع تقريبا، عندما هتكتْ قُبلتنا صمت الشارع من حولهم، وبرزتْ الرغبة على ساحة الروح، رغبة لا حد لجوارحها الواهنة على احتمال بركانها الثائر إلا بتناثر الحمم المشتعلة، هكذا استدرنا معًا ببطء، وامتدتْ أيادينا بثقة، وقطفنا التفاحة ـ التي تدلتْ من الشجرة كأنما عن عمد ـ بثقة، ويقين كامل.

أحسستُ بالارتياح، وتساءلتُ في صمت، كم من الوقت يحتاجه رجلٌ مثلي كي يسامح نفسه؟! ودخلني يقين بأنني كنتُ أنظر بعين واحدة، وأن الذين يمتلكون نظرة محدودة عن الحياة، يمتلكون نصف الحقيقة فقط، وكأنهم ينظرون من ثقب الباب، لكنني الآن أشعر أن الباب ينفتح عن آخره أمام عينيّ، وأنني أرى كل شيء بكل وضوح ممكن، هالني حجم الحُجُب التي تكشفتْ فجأة، وكانت قبل هذه اللحظة تُشكل عوالم كاملة من التيه، وتلتف من حولي بقوة كأنما جدران صلبة لا تهب غير الظلام، الأحلام البيضاء، الأفق الذي أتى من بُعد غائر، والريح التي لا تكف عن السفر، كان العنف يناسبني بشكل حقيقي، غير أن الوقت كان يبدد كل شيء خلسة، وعندما تتساوى الكفتان تمامًا يصبح المستحيل هو قدرتنا على الالتفات إلى اتساع المسافة بين نظرتنا والحياة، وحين تغيب الشمس يصير كل شيء من حق الوقت فقط.

...

لا أشياء مسروقة هناك

سوى نظرتنا الخاطفة إلى الماضي

والندم الذي يقطر منها.

...

أريد أن أقبض على عنقك أيها الوقت، لكنه لا يكف عن الاستطالة والبُعد، هكذا امتدتْ يداي إلى فراغ، وقبضتا على فراغ مثله، فترنح جسدي في وقفته، ولم يستطع استناد يديّ على سور الشُّرفة أن يمنع ثقل الجسد الذي يزداد على قدميّ، أو الدوار الذي ينقض على رأسي كذئاب جائعة لا تكف عن النهش، أو حتى السحابة البيضاء التي راحتْ تغشى عينيّ، وتسحبني إلى دوامات من التيه الجارف، وكأنني أسقط فجأة في هوَّة بحر، وبدا الغروب ثقيلًا على حين بغتة، كأنه كان يُدبر لمؤامرة محققة، ويأتيها خلسة، لكن الأرض التي اصطدمتْ بجسدي أهدتني ذاكرة.

...

مضى وقت طويل قبل أن أدركَ أن الشُّرفة خاوية، تقف على هواء ساكن، وتزلزلها الريح كلما تثاءبت نحوها فجأة، أو بعمد، وأن التفاحة بطعم الخطأ الذي لا يُغتفَر، كأن وجودنا لم يكن مرغوبًا فيه من الأساس، والمسافات ـ التي تُنهك قلوبنا

وأجسادنا ـ صحراء بلا شجر، وبلا يمام أيضًا، وأن نصف القلب ونصف الجسد هما كل ما يبقى كطُعْمٍ للوصول، هما نصف الروح التي ضلتْ طريقها قبل أن تلتئم الآن، لتحملها الريح مع اليمام الأبيض، عبر الأفق الذي يذهب إلى بعيد، ولا يعود.

المحتوى

الإهداء ٥

المقعد الخالي ٧

نوافذ الضوء ١١

بيت مريم ٣١

أثر المحبة ٥٣

وحدي معهم ٧١

لم أعد أصدقهم ٩٥

الشُرفة ١١٧

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة،

بل تعبر عن رأي المؤلف، وتوجهه في المقام الأول

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب

يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي

من الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو بالإشارة إلى المصدر

الطباعة والتنفيذ.. مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب